فاطمة

كفر الشيخ/عابدين

سهى زكي

الكتاب : فاطمة (رواية)

المؤلف : سهى زكي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢٤٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 027 - 0

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٠٢)

www.shams-group.net

الغلاف إهداء عبد الحكيم صالح

فاطمة

رواية

كفر الشيخ/عابدين

سهى زكي



إهداء

لـ فاطمة..

نهى ابنتي وأختي في نَفَس واحد ..

ومحمد وصلاح حبيبان لفاطمة..

وسلوى عزب مخلوق من فضة..

أما أنت يا أبي..

كلما كتبتُ لك حرفًا ؛ زاد لك في قلبي حبًا

وأخيرًا ..

إلى كل العائلات ، الذين لا يتعرفون على

وجوه أبناء عائلاتهم في الطريق

§ العشر سنين الأولى

كلما وقفت في هذا الميدان وارتفعت عيناي لأعلى، أراهم،

أرى كل الشخصيات التي مرت بعمري

منذ...

- ١ -

"العملية حتموّت الجنين اللي في بطنك"

نزلتْ من فوق السرير المتحرك تجري إلى باب المستشــفى، ترتعــد وتتمايل ببطنها المنتفــخ، تضحــك وعيناهــا تساقط دموعًا بلا تعمد للبكاء، وأنا أهتز داخل بطنها في سعادة لنجاتي من الموت.. فرحــتْ بإنقاذ جنينها المسكين، لكنني لم أفرح، ضايقتها بالــدمامل والكلــف والبواسير والعروق النافرة، أبشع حمل يمكن أن تمرّ به، مــا هــذا الجنين المقرف ؟!

لولا الست كريمة العفية التي جذبتها من أذنها ووشوشتها لما كــان لي وجود الآن، ولكنت مجرد ذكرى حمل مؤلم لأمي.

رفضتُ بإصرار النزول من بطنها إلى العالم، عانى أصــدقاء الــبطن وهم يودعونني، القلب والقولون الكبد، الدماء والأوردة.

ودعتهم بحزن وأنا أخرج رافضة أن ينقطع الحبل السري ببساطة بعد عِشرة دامت تسعة أشهر، وخاصة منذ نبض قلبي بينهم، كيف وافقتْ هكذا بسهولة أن تذهب للمستشفى مع أمها "الست كريمة" وهي تحمل في بطنها جنينًا عمره سبعة شهور؟ حين أخبرها الدكتور بضــرورة إجراء جراحة عاجلة "للبواسير" وأن العالم على أعتاب عــام ١٩٧٥ وطب الجراحة تقدم جدًّا في محاولة لإقناعها حتى تعيش حياة سليمة، حتى وإن اضطر للاستغناء عن الجنين.. وبعد استعدادها وهــي فــي

طريقها على "الترولي" مرتدية قميص العمليات أنقذتني جدتي بعفويتها الريفية.

ألا يشعرون بالشفقة عليّ وأنا أخرج من جنتى إلى عالم الجنون؟

وهم يقطعون الحبل السري تشبث أصدقاء البطن بيأكثر فتسببوا في قطع عرق مهم في بطنها!

لماذا لم تجر العملية وتريحني من عشرة يصعب فراقها؟

جنين شقي تمامًا، كنت أحتفظ بصمت يثير القلق، فأنا طفلة هادئة لا أبكي كثيرًا أو أبلل الفراش، بل كنت أنام بلا حراك حتى تهزني أمي لتتأكد أنني على قيد الحياة!

ودائمًا ما يصل لأذني كلام أمي الغريب عن أبي وتمنيها أن ينصلح الحال بعد ولادتي: "البنات فأل حسن"، "يا رب بوجهك الجميل على البيت يهدى حال أبوك، ويجعل على قدومك الرزق" أنا لا أعترض على سهره كل يوم مع الفنانين، لكن يعطيني فرصة أتنفس أفتح باب البيت من الخارج، أشترى احتياجاتي وأعود، إلا كل ما أستطيع عمله هو أن أطل من الشباك من بين القضبان الحديد والناس تشاهدني من الخارج، وأساسًا أين هم الناس؟! فسكان الشارع يُعدون على الأصابع.

- ٢ -

ذهب كل ناس الشارع إلى المقابر الآن، أم سمير البقالة، وعم بوش الفران، وسناء عاهرة المنطقة الشهيرة، وكذلك أم رشا التي ستموت بعد ذلك التاريخ بقليل محترقة بعد غضبها من زوجها لأنه يفشل كل مرة في إتيانها من الخلف نظرًا لسمنتها المفرطة، أما رزق ومرزوقة وأم وجدي وأولادها ساكنو بيت المسيحيين، والذي لم يشعر الشارع بوجودهم أبدًا نظرًا لهدوئهم الشديد وطيبتهم حيث كان الجميع يستشهد بأخلاق عيال أم رزق وأم وجدي فقد ساهم ذلك في تربيتي بشكل حيث كانت تراعيني مرزوقة بحب شديد، وكنت أشاهد أم بشرى وهي تصلي أمام صورة المسيح المُعلَّقة في صدر الصالة في شقتي المتواضعة، وكانوا يحبونني بشدة لأنني كنتُ طفلة جميلة وهادئة ونظيفة، أتأملهم وأنا على علم أنني لن أصبح منهم يومًا، لم أشاركهم حياة الشارع وقتها كان أبي يفك سجننا كل جمعة لنأتي إلى هنا وسط البلد حيث نتحرك بين البيوت على راحتنا تمامًا، وكأن تلك المنطقة الحديثة "الهرم" تقلقه تمامًا علينا، أما في تلك العائلة التي سمعنا عنها الكثير، كان يتركنا نتحرك بين بيوت العائلة في المنطقة، ست عمات وعم في عابدين وست عمات في باب الخلق وعم آخر دائم الحزن، هذا بخلاف الأربعة أخوال والخالة الوحيدة.

نتحرك بخفة ما بين كل تلك البيوت كل جمعة وهو لا يجلس معنـــا إلا نادرًا، يأتي بنا إلى وسط البلد ثم يختفي طول النهــار ليعـود بعــد منتصف الليل ليحملنا في سيارة الترحيلات؛ أقصد التاكســي؛ نظــرًا لتأخر الوقت كنا نقف أكثر من ساعة في ميدان لاظوغلي حيث وزارة الداخلية تقف مخيفة ومرعبة في ذلك المكان، وفي كل مرة تقريبًا لا يوقف لنا تاكسي إلا أحد الضباط الواقفين في المكان، يتأملنا من بعيد فنثير شفقته لطول وقفة الأطفال المساكين مع أب وأم مختلفين دائمًا، فنستمع لخلاف ليس جديدًا وهي تسأله لماذا لــم يــأتِ للغــداء أو العشاء حتى عند أمه أو أمها، ينظر لها وكأنه يلومها لأنها تعرف أنه لا يعتبرهم هنا أصلاً، وأنه فقط يحاول أن يثبّت لأولاده جذورًا في تلك الشوارع التي ساهمت في تربيته، فيخبرها أنـــه ببســاطة لا يــأتي بأولاده لأهله المتمثلين في كتل اللحم والدم الذين تكتظ بهم البيــوت أبدًا، إنما يأتي بأولاده للشوارع؛ تلك الأماكن الحقيقية التـــي ربتـــه ببساطة، فعندما قرر أبو إبراهيم وأمه الانفصـــال وهـــو فـــي ســـن التاسعة، تزوج كل منهما مرة أخرى، لم يكلفا نفسيهما حق التنـــازع على رعايته، رغم ذلك ناداه "أبويا" ولم ينتبـــه لقســوته والتصـــاقه الشديد بزوجته وبناتها، تركاه تائهًا ما بين الأب وزوجته في "بـــاب الخلق" التي ورثت تقريبًا كل أنواع الحرفيين منذ اســتعمار الأتـــراك لها، وكان أبو إبراهيم من أكبر الدباغين الموجودين في باب الخلق، رجل طويل أبيض، تسببت طيبته في طلاقه مـــن أم إبـــراهيم، كـــان مطيعًا لأمه وإخوته بشكل ألغى شخصيته تمامًا، يتلصص عليه إخوته وهو نائم في حضن زوجته، كانت بيضـــاء بضـــة مشـــبعة بحمـــار

الأتراك، ربما كان أبوها أحدهم، مليحـــة الوجـــه، مكحلـــة العينـــين سوداءها، تبين من تحت البرقع المقصب كأنها قطة شقية، مكتنـــزة الجسد ونشيطة وكريمة، ولكنها مع ذلك قوية لم تقبـــل اســـتعبادها، تحملت إهانات أهل زوجها، حتى أنه إذا أتـــى لهـــا بهديـــة، يخـــاف ويخبئها في سيالة جلابيته، كانت تخدمه هو وأربعة عشر من الإخوة والأخوات والأب والأم، لكن الشيء الوحيد الذي ضايقها رغم كل هذا العدد من الأسياد في منزل هذه العائلة هو التحكم الشديد في زوجهـــا والاعتماد عليه دون الإخوة الآخرين، حاولت دفعه لأخذ حقـــه لكـــن دون جدوى إلى أن فاض بها الكيل من إهانتهم له أمامهـــا، فكانـــت ليلتها الأخيرة بمنزلهم عندما أتى لها بصينية "كنافة بالقشطة" مخبأة كالعادة، فأخذتها منه وألقت بها من الشـــباك وهـــي تلعـــن ســـلبيته وضعفه، طالبة منه أن يطلقها، سحبت رضيعها من فـــوق الســـرير بعصبية بلا كلمة واحدة، ولفت حولها الملاءة اللف السوداء المطرزة بترتر ذهبي، وارتدت برقعها وقبقابها، وخرجت تترجرج بخفة علـــى نغمات خلخالها الفضي من منزل العائلة الكبير هذا إلى غير رجعة.

وبدوره بحثت له العائلة عن عروس جديـــدة، وكانـــت مواصـــفاتها الشكلية قريبه الشبه بأم إبراهيم، لها سابقة زواج، شخصية مسيطرة جدًّا وقوية، لكنها لم تكن بعصبية الأولى فلم تسمح لعائلة أبي إبراهيم في التحكم فيها ولا السيطرة عليها، استطاعت أن تفعل ما لم تفعله أم إبراهيم بطيبتها، دفعته لإيجاد مسكن منفصل عن سكن عائلته.

وبدأت سلسلة من المشكلات العائلية بسبب ذلك الانفصال الذي كــان نادرًا في ذلك الوقت كان الطلاق حالة مرضية لا تقبلها البيوت قديمًا مطلقًا وعلى المرأة أن تموت وهي في حضن رجل يضاجعها بــالقهر أو على الرجل أن يذوب، وتظهر عليه ملامح العجز أو يخون أســهل وهو متزوج امرأة تشبه كثيرًا مومياء الفراعنــة أو مرتبــة ســرير قديمة.

كان لقوة شخصية الزوجة الجديدة لــ "أبو إبراهيم" أثره على عملــه مع إخوته في المدبغة التي ورثوها عن أبيهم إلى أن فرقتهم جميعًا.



نجحت أم إبراهيم في العيش وحدها في بيت صغير في تلك المنطقــة الواقعة بين شارع حسن الأكبر والطريق المؤدي إلى بــاب اللــوق، حيث كان موكب الملك بهيبته بين الناس الواقفون لتحيــة الموكــب، فتنبهر السيدات بجمال الملك فاروق، الذي أصبح بسببه بعــد ذلــك يحمل اسمه الكثير من الرجال، ولأنها شديدة الجمــال والخفــة فــي الروح والدم، وثقيلة في الوزن، فهي ممتلئة القوام بيضــاء، وكــان الرجال وقتها يسمونها بالسيدة البيضاء الممتلئة التــي تســير فــي المنطقة بالملاءة اللف، ظاهرة قليلاً من كتفيها المدورتين وكأنهــا لا تتعمد ذلك، بالطبع لم تأخذ وقتًا في إيجاد عريس جديد، في البدايــة أوهمها أنه يقبلها هي وابنها الرضيع، ولكن سرعان ما انقلب الأمــر بمجرد أن شب إبراهيم... كان طفلاً جميلاً ورث صفات أمه، حتــى

نظرها الضعيف ورثه عنها، وبمجرد أن أنجبت أول مولودة لها بـــدأ زوجها يضيق بوجوده بالبيت، إلى أن أجبرهـــا أن ترســـله لأبيـــه، حاولت زوجة أبيه أن تدفعه لترك دراسته ليتفرغ للعمل مع والده في المدبغة وحاول ذلك لكنه فشل لأنه لا يستطيع أن يعيش بـــلا ورقـــة وقلم.

أنهى إبراهيم امتحاناته الابتدائية بتفوق وبدأت إجازته التي يقضـــيها عند أمه وزوجها ليعيش معهما في عابدين في بيتها المندس وســـط الممرات الواقعة أمام قصر الملك فاروق، حيث كان يحب أن تســـكن حاشيته، وكانت خلف هذه المنطقة التي يسكن فيهـــا حاشـــيته مـــن المعاونين والخدم مختلفي الجنسية الذين كانوا ينزحـــون مـــن هنـــا وهناك لخدمة القصر والطبقة الراقية، وهو مكان أقل في المســـتوى الاجتماعي والفكري وكل شيء، لا يعرف الملك عنهم شيئًا، وكانـــت هذه الشوارع والممرات الضيقة التي تجاور بيوت حاشية القصر من أثار العصر المملوكي!

من عمارة استراند في مقر مجلة "الثقافة الجديدة" وأنا أقدم لهم قصة لتنشر لي حيث تدفع المجلة، أنتظره، تخرج عيناي على الشارع حيث ألمح "إبراهيم" في شاشة أبيض وأسود واقفًا بجوار القصر متمنيًا أن يدخله يومًا ما، لكنه لم يتمتع بطموح كافٍ ليتسلل إلى القصر خلسة كما يفعل الأطفال المغامرون من جيرانه، واستسلم لمعاملة أمه التي تخبئ الطعام لزوجها وأولادها منه.

ساهم في خروجه من الإحساس بالوحدة وجود سينما "استراند" التي كان يسهر فيها يشاهد كل الأفلام، شاهد وقتها الأفلام الأجنبية التي كانت تعرض في مسلسلة مقطعة كل يوم في جزء، وهو جالس على سور السينما حتى ينام مكانه فترسل له أمه أخاها يحمله وهو نائم، ويضعه على الكنبة القديمة أو فوق سطح البيت فترسل جدته وجده في طلبه ويأخذونه منها ويقومون برعايته ويلاعبونه ويحممونه ويدللونه وكأنه الملك فاروق شخصيًّا، كما كانوا يحبون أن يشبِّهوا بياضه المشبع بالحَمَار ووسامته المبكرة، وزرعوا داخله حب الصور والتصوير، فجده كان من أوائل المصورين المصريين الذين تعلموا التصوير من الخواجة حزقيل الشهير في المكان، وكان دائمًا ما يصحبه خاله وجدَّه إلى هناك.

فى إحدى زياراته النادرة لأبيه دبرت زوجته تهمة سرقة حتى يتنازل عن أي إرث له من أبيه، أو يُسجن ويضيع مستقبله، لم يدافع الأب عن ابنه، ولم يستطع وهو في هذه السن الصغير الدفاع عن نفسه، تدبر ذلك وهي تهتم بنظافته وملابسه وتعليمه والكرم في إطعامه ومصروفه، مبررة قسوتها للصالح العام لأنها لم تنجب إلا البنات، فلم تكن أنجبت الولد بعد، وكانت ماهرة في جعله "يهرب" من البيت فيعود طائعًا مستسلمًا إلى أمه وزوجها أو جدته وجده الذي يحن عليه ويهتم به أكثر من كل أحفاده.

لم تصادفه حالة حزن أو اكتئاب رغم هذه الأحداث المؤلمة التي تمر به، حتى أنه لم يشتكِ أبدًا لأي مخلوق، ولم يقف مرة يحدث السماء عما تفعله به الدنيا.

وقف على السطح ينظر إلى لبيوت حوله متأملاً وهو محتضن أحد كتبه بعدما أتم قراءتها وهو يكلم نفسه عن نفسه ببساطة وسخرية وبلا افتعالات درامية، لمح على السطح المقابل فتاة صغيرة برونزية لها شعر أسود طويل، ممتلئة القوام قليلاً، ترتدي جيب قصير فوق الركبة بكثير وبلوزة سوداء ضيقة عارية الذراعين، وكانت تقف معها فتاة شقراء جميلة، حفيدة أحد السوريين الطيبين الذين بقوا في المكان منذ رحيل الملك وبعض حاشيته من مصر، لفت نظره الفتاة برونزية اللون، فلم يلتفت للبنت الشقراء، ولكن أثارته تلك البطة ذات البشرة النحاسية.

أصبح ما يؤنسه في هذا المكان هو وجودها وكتبه التي يجمعها من هنا وهناك بأي طريقة، يدخل بين ضلفتيها يعيش أي حياة يريدها بعيدًا عن عالمه الضيق. أحب السطح، وأخذ يراقب فتاته كل يوم وهي تعتقد أنه ينظر إلى صديقتها الشقراء، وتأكدت أنه يهتم بها هي بعد استمراره في النظر إليها ومراقبتها ومتابعة كل خطواتها، حتى أنه كان يسهر طيلة الليل ينظر لشباكها إلى أن ينطفئ نوره، ثم ينام هو.

وبعد أن زاد شوقه وإهمالها خطاباته المتكررة التي كان يرسلها لها بالمشبك من السطح للسطح، واشتعلت رغبته في لقائها عن قرب؛ حاول الكلام معها، انتهز الفرصة ذات مرة لينزل خلفها وهي ذاهبة لشراء أشياء لأمها الست كريمة الفلاحة الجدعة النازحة من كفر الشيخ وترعى زوجها وأولادها وأمها وأخواتها جميعهم في مكان واحد.. "فاطمة" هي أصغر بناتها فلم تلق منها اهتمامًا كافيًا كالباقين، لم تعطها الوقت والمجهود اللذين أغدقت بهما "لبنى" البيضاء الجميلة التي فار جسدها قبل الأوان وكانت حديث المنطقة، لكنها لم تلفت نظره...

سار إبراهيم خلف فاطمة وهو بالبيجامة، يجري عليها لتكلمه:

- ردي عليا عيب أنا لا أغازلك.. يرضيكي أمشي بالبيجامة في الشارع، عيب الناس تقول عليا إيه؟!

فرغم أنه ترك منزل أبيه منذ سنتين تقريبًا إلا أن سلوكياته التي تعلمها من زوجة أبيه "تركية الأصل" في أسلوب الملبس والأكل لم

يتغير، فكان نظيفًا، مرتبًا، حتى أن سطح بيت جده الطيب تغير حاله تمامًا منذ أن استقر فيه، فأصبح أشبه بحديقة جميلة يتمنى أي إنسان أن يعيش فيها.

ردت عليه بعد إلحاح طويل، فهي تخاف أن يراها أحد الجيران وهـو يكلمها.

§ العشر سنين الثانية

من أعمارنا تنمو أعمار أولادنا ، هكذا تأكد اعتقادي بعد كل هذه التجارب وكل الأوقات الماضية وارتبطت في ذهني أشكال الموت بكبار السن، فكبير السن فقط هو الذي يموت، ولابد أن يكون له أولاد ليحزنوا عليه لأنهم ببساطة هم المتسببون في انتهاء عمره، فقد أخذوه منه، فكل يوم لهم هو مفقود من ذلك الكهل، هي عملية شفط شديدة الدقة للروح منظمة ومحكمة بعناية، أما بعد ذلك بعشرات السنين سأكتشف أن عملية الشفط المحكمة هذه ربما لا تحتاج لعمر طويل لتحقق المطلوب منها .. ببساطة ينتهي العمر بمجرد انتهاء عملية الشفط سواء كان عجوزًا أم شابًا أم طفلاً .. وسنعرف أيضًا أن البكاء يزول مفعوله مع الزمن وينتهي تأثير الفراغ كلما علت أصوات الموسيقى الصاخبة في الملاهي الليلية.

- ١ -

وقفت الست "كريمة" في مشهد سينمائي لا يُصدق ترد على النمامين الذين يقطّعون في سيرة البنت، قالت لهم بصوتها الحنجوري ذي الصدى الرعدي المميز:

- أي بنى آدم عنده كلمة، ابنتي أشرف بنت في وسط البلد.

تقوم إحدى السيدات "البلدي" اللائي اعتدن الجلوس على باب البيت كل يوم ساعة العصاري هي وجيرانها لممارسة عادة النميمة وهي تقول بخبث:

- أنا يا أختي عايزة مصلحتك أنا والجيران خايفين على "فاطمة" دي بنتنا، وإحنا عارفين إن الواد إبراهيم هو اللي بيمشي وراها وبيضايقها.

ترد الست كريمة: (ماشي) بنعومة كأصوات أولاد الذوات:

- أنت يا ولد يا إبراهيم، عاوزها؟

فتنظر له ولفاطمة بلا كلمة واحدة.

يجيبها إبراهيم بخجل:

- أيوة يا حاجة طبعًا !

فترد عليه بجرأة لتغيظ كل السيدات الشامتات!

- كوّن نفسك وأنا أجهزها لك، وأمام الجميع:

- إبراهيم بيحب فاطمة وفاطمة بتحب إبراهيم.

عشر سنوات على علاقة إبراهيم وفاطمة،ورغم الحروب التي تعرض لها هذا الحب إلا أنه صمد، وكان مشهد الست "كريمة" قاطع ألسنة الناس عن ابنتها حتى سلمتها له هي شخصيًّا، فقد تعجب الجميع من جرأة "أم حسين" الفلاحة؛ كما كانوا ينادونها:

- أما صحيح الفلاحين سواهي يطلع منهم دواهي...

ووقف حسين ابن الست "كريمة" وأخو فاطمة الكبير يتملكه الغضب وهو يقول لأمه:

- عاجبها فيه إيه دا أبو فترينه إزازا على عينه؟!

- ٢ -

مل البيت، عمره الآن لن يستوعب ضجيجًا غير ضجيج الأصــدقاء، وبما أن العملية محسومة من زمن، فأنا وفاطمة نخرس كل يوم ولا نصرخ أبدًا، لكنه لا يرضى بالألسنة المقطوعة فيستفز كل أعضــائها حتى تتشنج وتقع، ثم يربت عليها ويلعن ابنته، يحتضــنها بعشــقه المنسي، يتذكر فجأة أنها حبيبته وأمه التي أطعمتــه وحنــت عليــه والأيام تكيل له لكماتها ولطماتها على أجزاء جسده الذي كاد يتلاشى في أركان المقاهي، تخبرنا فاطمة بطريقتهــا التــي تشــبه عــدودة الصعايدة.. أننا نسير بلعنة جدنا على أبينا، لأنه كان ابنًا عاقًا لم يزر والده منذ تزوجها وكلما ألحت عليه لزيارته يــرد عليهــا بعصــبية مفزعة:

- أنتِ متعرفيش حاجة، إنتي معشتيش معاهم، أنا اللي عشت وأنــا أدرى... أزوره أو لا " وكان مهما غاب عنهم، تفكر أمه التي أنجبت ست فتيات متمثلا فيهن الجمال الأوروبي، وولدًا يشــبه زوجهــا أن تسأل عليه ولا مرة أو حتى تشاركه في أي شيء هام فــي حياتــه، وكذلك لم يفكر أبوه المشغول دائمًا مع زوجته وبناتها اللائي يشبهن ساحرات سالم تمامًا، ولكن هنا هن ستة أيضًا ولسن ثلاثة، ولم يكن يشعر به من هذا الجانب المؤلم من العائلة إلا أخوه الصغير "ســعيد" السابع أيضًا الذي كانت العائلة تخاف عليــه خــوفهم علــى أنثــى

ويحذرونه أن يطلع مثل أخيه إبراهيم العاق الذي غـوى الصـحافة وعاشر الفنانين الكفرة !

هكذا كانوا يصورونه لهم، ولكن "سعيد" أحب العود والجيتار وأصـر على دخول معهد الموسيقى العربية وبمساعدة أخيه أيضًا رغم كـل اعتراضاتهم، وظل أبو إبراهيم يدعو على إبراهيم الذي تسـبب فـي فشل أخيه الصغير الذي قلده، واعتقدت "فاطمة" أن ما جرى لنا بعـد ذلك وستعرفونه في حينه من أثر هذه الدعوات طبعًـا، لأنهـا ترانـا بعاهات ذهنية حادة، نسير بظهرنا في الدنيا بلا خوف، وتلـوم علـى الزمن الذي جعل أبو إبراهيم يدعو على إبراهيم بأن يرى ما فعله فيه في أولاده !

ما أجمل دعوة الجد !

فإن هذا الجد لم يحسن لابنه أبدًا، ورغم ذلك جلـس تحـت قدميـه يتلمس البركة، لم يذكّره أبدًا بأنه الولد الوحيد الذي أنجبته الدنيا بلا قصد أو ترتيب، لم يخبره يومًا أنه مجرد بديل لأب لم يره أبدًا، مجرد جثة تلعب فيها الروح تتحرك أمامه يناديه... "أبويا".

لم يراع أحدٌ أنه لم يكن له سرير منذ وُلد، وأن "فاطمة" تعاني معـه دائمًا لينام على السرير، ويدعه من هذه الكنبة التي يصر على النوم عليها متحججًا بأي شيء لا يمنعه حقيقة من النوم على السرير.

لم يسع لملء البيت بالكثير من الأسرة، ولا لهث وراء ثروة.. إنمـا اكتفى بأن يجمع القليل من المال ليصنع غرفًا صغيرة لأطفاله، أربعة جدران حتى يغلقها عليهم بمفاتيحه ويطمئن أنهم لا ينزلون الشارع !

في كل فسحة ينشب حريق بينه وبين فاطمة أثناء العودة للبيت، أصم أذناي متجهة ناحية شباك المواصلة التي نركبها، أراقب اللافتات المعلقة على أعمدة الكهرباء والمكتوب عليها أحرف أشبكها محاولة قراءتها وأجهل لم علقت مصطفة في الشوارع الكبيرة، كان يستهويني عدها، وقبل وصولنا بقليل تتبدل اللافتات البيضاء البلاستيكية بأشجار كبيرة يبدو عليها العجز والحكمة، أواصل عدها بلا تفرقة رغم خوفي من مشهد الأشجار المهيب في ظلام الليل، خاصة عندما يقرر إبراهيم أن نعود إلى المنزل بالتاكسي، فتكون فرصة أعلى للتركيز. أما أثناء عودتنا بالأتوبيس فكان كل ما يشعرني بالضيق أن يوقظني لأننا وصلنا وعلينا أن نسير قليلاً من مكان المحطة إلى المنزل فأرتعد حتى في الصيف وأتعجل السير وأسابقهم، فيسبني إبراهيم لأنني تخليت عن القطيع الذي يرعاه.
حملنا جميعا فوق ظهره وسار بنا حتى لا نجهد، ظهره لا يحتمل ثقلنا منذ الصغر، كان يخاف حمل أربعة مغمضي العيون.

مع الوقت توقف عن اختيار وسيلة المواصلات المناسبة لنا، اكتفى بإعطائنا ثمنها أيًّا كانت حتى اعتدنا التيه بين العجلات المختلفة، وكلما حاولت أنا الانفلات من بين هذه العجلات تصطدم بي، حتى أنه في كل مرة تتناثر حروفي المتجددة بفعل الحوادث بالشارع !

- ٤ -

فهمت الآن اللافتات المعلقة ولم عُلقــت "إعلانــات"؛ هــذا اســمها، فانشغلت بقراءتها:
طفل صغير يمسك بيده "ببرونة" يحتضنها بيديه وقدميه يرضع منهــا بفمه ومكتوب بجوار الصورة "ريري"، ويليه علــى نفــس الطريــق إعلان عن علبة صفراء كبيرة اسمها "رابسو". وهكذا معلــق علــى طول الطريق... تليمصر - النابلسي...
كلها أسماء غريبة وكنت أقرأها في رأسي متقطعــة فــأقرأ ريــرى (ريــيــيــيــيــري) ورابسو (رااابسسووو)... كنت أقــرأ حــروف الإعلانات بصعوبة وأراها كبيرة جدًّا فأسأل إبراهيم: "هي الــيفط دي طلعت فوق كدا إزاي؟" معتقدة أنها خلقت ضمن مخلوقــات الطبيعــة كالشجر والجبل والشمس ! فكان يجيبني بأنها إعلانات حديثة، فهــي طريقة جديدة.

وكانت رائحة وسط البلد في ذاك الوقت وأنا أسير بجوار جدتي لهــا ميزة خاصة في أنفي مازالت تطاردني حتــى الآن، فهــي روائــح مختلطة مابين ورق الجرائد الأصفر، وكتب قديمة ببراز الفئران في مخازن الكتب، ورائحة أشجار الخشب التي تنبعــث مــن بلكونــات البيوت القديمة الواسعة تحتضن معها رائحة توابل الطعام التي تعبــأ بها أحواش عمارات وسط البلد وحدها دون أي مكان آخر.. مختلطة

برائحة البن التي كانت السيدات الممتلئات يقمن بطحنه في مطحنة صغيرة بالبيت أو تصل لأنفك رائحة تحميص البن من عند "عبد المعبود" الشهير في ميدان الفلكي فرائحته كانت تغزو الجو، وكأنه من أنادر البن... كم أحب رائحة وسط البلد.

في راديو الصباح استمع لأبلة فضيلة وهي تدعو الأولاد والبنات ليستمعوا لحواديتها، ثم تتبعها شادية وهي تغني أغاني الدلع "عايز تصالحني تعالى قبل الشوق ما يجنني" وأنا أفطر الفول عند جدتي أم بابا، أو لأغنية عاطفية جميلة عندما تحممني جدتي أم ماما، لماذا كل هذا الحب لشادية دون غيرها من المطربات، فهي الوحيدة التي جعلتني أشعر بكل الحالات التي عشتها وخاصة، أغنيتها التي ثبتت في عقلي لسبب عرفته الآن "لما كنا صغيرين.. كان لنا مكان صغير دايمًا تقابلني فيه... فرحة باينة في عنينا رعشة سارية في أيدينا"، كالصم والبكم تمامًا، عقلي يستوعب أن الكبار يحبون الهدوء والطاعة، فأريح الجميع بهذه الطريقة صمت، صمت، أستمع للأغاني، لكن للأسف كانوا لا يدركون أن صمتي أخطر من الشقاوة، فالصمت جعلني أتأمل عيونهم وأفكارهم وأتيه في عقولهم لأخرج في آخر الأمر بمخزون رغباتهم.

أنا البنت الجالسة في الركن صامتة كشفت جميع العائلة بهذا الصمت، بعمري الذي لم يكمل العاشرة، استوعبت الأحاديث الجانبية ونقد أخ لأخيه من وراء ظهره، أو تآمر دمه خفيف بين بنات خالتي على بنت الجيران لأنها ستأخذ منهن ولدهن المفضل، أنا الصماء البلهاء المتأملة لكل ما يدور نمت عواطفي مبكرًا عن موعدها فمن

سن الخامسة وحتى التاسعة، كلما ذهبت إلى بيت خالتي، كان يحاول "هاني" ابن خالتي استفزازي،وكان يكبرني بقليل وأطول كثيرًا وشقي، يرمقني بنظراته المستفزة وهو يصول ويجول في الشقة وأنا جالسة في ركنها على كرسي الأنتريه لا تطول قدماي الأرض، وأقلق جــدًّا من نظراته التي كانت تشعرني بأنني غبية وبلهاء.. أتجاهلــه لكنــه منتهز هو الفرصة المناسبة عندما ينسحب الجميع من الصالة إلــى "الفراندة" الواسعة ليبدأ بمشاكستي، فأنا لا أحب أن أحشر نفسي بين الكبار لأنني كنت أجد أحاديثهم سخيفة ومملة، فهم يتكلمــون عــن "الضباط الأحرار"،ويرددون كلمة "ثورة"، وكان الاسم الوحيــد الــذي ميزته والتصق بعقلي هو اسم "جمال" فكان جدي دائمًا يــدافع عــن "جمال" هو وأبي وأمي، أما الخالة وزوجهــا فكانــا يــدافعان عــن "السادات"، وأصواتهم تعلو في "الفراندة" وتصل إلــى ســمعي فــي الصالة، "وهاني" يقف أمامي في ظلمة الصالة التي قررتهــا خــالتي لأنها توفر في الكهرباء فتغلق كل الأنوار وأنا جالسة فــي ركنهــا لا تكترث لي وهي تطفئ الأنوار وهي تقول لي "أنا عارفة إيه دا؟ إنتي إيه؟ ما بتخافيش من الضلمة؟".. يتسلل "هــاني" بعيونــه الســوداء الضيقة طويلة الرموش، يترقبني من تحت نظارته الرقيقــة مرتــديًا بيجامته المقلمة فيقترب مني مستفزًا: "قومي يا قزمة العبي معايــا.. يالا يا كرته يا وحشة.. إنتي ما بتحسيش؟".

يلكزني بقسوة لأتحرك، أنهض غاضبة، أترك له المكان بهدوء وأدخل إحدى غرف البنات المختفيات الآن على سلالم العمارة يعاكسن ابــن الجيران الوسيم "عمرو" فهو فتى في العاشرة، شعره ناعم طويل، كنّ

السبع فتيات الواقفات على السلم يتنافسن على الفوز بـ"عمرو" وهو في دنيا أخرى يتمنى اللعب مع "هاني" الذي يضايق الآن في ابنة خالته... أسمع صوت "عمرو" وهو ينادي "هاني" بميوعة ودلع فأقول له بصوت مختنق بالدمع: "امشي سيبني بقى روح كلم صاحبك البنوتة بينده عليك".

دائمًا ما ينتهي يومنا عند الخالة في تلك الأيام القليلة التي نذهب لزيارتها فيها، بهذا الاختناق المؤلم، خرجوا جميعهم من الفراندة يطلع من أذنهم نيرانًا نتيجة للمناقشة السياسية الحامية التي دارت بين أبي وزوج خالتي وجدي وجدتي، ودائما كان الحوار بينهم يختتم بهذه النيران المنبعثة...

يسحبنا إبراهيم أنا وإخوتي واحدًا تلو الآخر، وهو يقول "نمشى من هنا، لن ندخل هذا البيت مرة أخرى،لا أختك، لا أمك"، وهاني ينظر لي نظرة حب وشفقة عليّ من يد أبي التي نزعتني بقسوة من أمامه.

أعاود من جديد رحلة عد الأشجار المرعبة في الطريق وأنا أسمع مشاجرة أبي وأمي كطنين بسيط في أذني وبلا مبالاة كالعادة!

هل سيقبل الآن بجمعنا في حقيبة يده السوداء؟!

يغلق علينا بالأرقام السرية لينقلنا معه من هذه الطرق إلى تلك؟! ثم يعود وحيدًا لمقهاه التي نافستها مقاه كثيرة، لأنهم قطعوا تلك الأشجار ليستبدلوا بها المقاهي فلم تعد وحيدة هي الأخرى، وزودت بجذوع الأشجار المقطوعة التي يجلس عليها منافسو أبي متخذًا وضع المحارب ليبارزهم ويحدق فيهم بتحدٍ كأنهم سيأكلون حقيبته!

كل المقاعد الجديدة أعداؤه الآن !

كلما مررت أمام هذا المكان لا تنظر لي إلا تلك الشجرة ! تنفلت الأخت الصغيرة "مي" من الحقيبة ويليها أخي الصغير "حميد"، أمـــا الكبيـــر "فادي" فيصر على البقاء داخلها حتى المـــوت، أمـــا أنـــا فاحتميـــت بجرابها الصغير أبحث عن ورقة وقلـــم وشيشـــة !

لم أعد أهتم بالأشجار الكبيرة، فلم يبق منهـــا إلا كراســـي خشـــبية عريضة يصطف عليها مرتادو المقاهي الذين لم أكن أراهم وأنا مـــع أبي، كل ما أذكره مقهى واحد فقط كان يأخذني إليه لأستمتع بصحبته وحواديته لي وبرؤيته وهو يدخن شيشته التي رسمت بدخانها قمـــرًا حزينًا في عيني مرافقًا قلمه الذي خط به تفاصيلي السرياليـــة.

- ٥ -

يعود إلى البيت بعد الثالثة صباحًا حاملاً في يده اليمنى جرائد ومجلات وكتبًا، واليسرى شنطة بلاستيك بها الفاكهة والطعام، أسعد أوقاتنا وهو يوقظنا في الثالثة صباحًا، يقف في المطبخ يحمّر لنا السجق أو البسطرمة التي نحبها... حتى كبرنا ظل أبي كلما عاد للبيت مبكرًا ومعه أي شيء يوقظنا جميعًا، يقف في المطبخ لتحضيره لنا بنفسه، لم نكن نطلب منه شيئًا في أي وقت إلا ونزل فورًا لإحضاره، حتى ولو كان في مشارف الصباح.

زادت عين أمي في "السرحان"، خاصةً عندما تبدأ الموسيقى القديمة المنبعثة من لعبة البيانو التي ترقص داخلها عروس الباليه الصغيرة في العزف بلا انقطاع، فتدمع عيناها، وتبدأ في سرد حدوتة عشقها من جديد وخطابات الغرام التي كانت ترسلها مع أخيها الأصغر "شريف" وردوده التي تعود مع أخيه الأصغر "سعيد"، نمل أنا وإخوتي ونخبرها أنها حكت لنا هذه الحكاية مائة مرة، فترد علينا بأنها ستظل تحكي وتحكي حتى تكف عروس الباليه عن الرقص.



تداعب فاطمة صور أخيها الأكبر "حسين" وخلافاته الدائمة معها بسبب خروجها مع إبراهيم و"تدكينها" للأكل كي تأخذه له، فيعاركها

أخوها ويضربها ويخرج من البيت غاضبًا مصوبًا كرته المعشوقة في الحائط بعصبية، حيث كان لاعب كرة ماهر يقوم بتدريب الناشئين في النادي الأهلي في ذلك الوقت الذي عمرت وسط البلـد بالمشـجعين المتعصبين، وانقسمت المناطق ما بين أهلي وزمالك، وكانت عائلـة فاطمة من الأهلاوية المتعصبين، وكان كل الرجال السـود بالمنطقـة زملكاوية، وهي ظاهرة لم أعرف لها تفسيرًا حتى وقتنا هذا.

أما "شريف" فلم يكن يفارقها، كان هو الآخر أحد الشهود على خلوات الغرام التي جمعت بينهما، سافر إلى إيطاليا تاركًا حبيبته وهـو فـي الفرقة الثالثة حقوق جامعة القاهرة، بعد فشله في الارتباط بها لقلـة الحيلة، لأنها تزوجت من صديق له، ومن وقتها لم يعد، وظل طـول عمره متحاملاً على أخوه الأكبر وهو ثالث ذكور فتحية متفرنج خريج كلية السياحة والفنادق جاب العالم طـولاً وعرضًـا فـي البـواخر السياحية الجديدة، وكان على وشك بالزواج من فتاة أمريكية، وكـان يشعر بتميز عن بقية إخوته لاختلاف ثقافته عنهم مما أدى لأن يصير منبوذًا قليلاً من إخوته، لأنه لم يعشق إلا أمه وهو الوحيد الذي بقي بجوارها عندما كبرت، واتهمته بأنه المتسبب بموتها محسورة هـو وزوجته التي زوجتها له جدتي من عائلتها الكبيرة بكفر الشيخ كمـا راج بين العائلة عليهم ومازالوا يدفعون عن أنفسهم هذه التهمة.
أما أخرهم "يوسف"، والذي دأب كأخيه الأكبر "حسين" على إحضـار هدايا لنا من الخليج بانتظام، وعاد في آخر رحلة خالي الوفاض سيرًا على أقدام متورمة في الصحراء بعد حرب الخليج، وهو الذي هـرب

من الجيش خوفًا من الصحراء نفسها، يتمرد أحيانًا ويعمــل، لكنــه يفشل لأنه لا يجيد لغة السوق، لأنه طيب.

قضت "بطة" فترة صباها في بيت أختها الكبيرة "لبنى"، لم تزرنا مرة واحدة لأن زوجها يمنعها لغيرته الشديدة، وكانت دائمًا مــا تجمعهــم وقت المغرب على صوت أم كلثوم والشــاي البربــري ذلــك الإرث الأسمر حلو الطعم "شاي بلبن" تجمعهم حولها في فراندة الشقة التي تقع في عمارة "المعايرجي" حيث اشتهرت العمــارة بكثــرة البنــات الساكنات فيها، فتقف هي وبناتها السبع بعدما يتــزينّ أحلــى زينــة وأولادها الرجال الثلاثة يقفون في الفراندة المطلة من الدور السادس في العمارة التي أمامها حاجز حجري تم بناؤه أيام الحــرب حتــى لا تصاب العمارات من القذائف بسهولة، كانت هــي وأولادهــا دائمًــا يستمتعون بمتابعة باقات أسراب الحمام وهم يستمعون لأم كلثوم التي كانت تخرج من راديو الخالة كل يوم في الخامسة وفــي التاســعة، وكان على زوار الخالة العزيزة أن يجتمعــوا معهــا فــي الفرانــدة والمحافظة على الأثاث الذي ظل قرابة ٤٠ عامًا لم يتحرك من مكانه ولم يتغير، وكان المشروب الوحيد الذي عرفته عندها هو الشاي بلبن في الساعة الخامسة.

§ العشر سنين الثالثة

الحزن شاطر

والفرح شاطر

والبحر غادر

هأقوله حاضر

- ١ -

نِمتُ هذه الليلة على ظهري على غير عادتي، وكنت أعرف جيدًا أنني كلما نمت على ظهري أغريت الجن بفعل شيء معي يداعب خيالكم الآن، كما كانت تقول أمي، لكن هذه المرة، لم يزرني الجن، بل زارني شيء أو كائن آخر، شعرت بشيء هُلامي مرعب يحاول انتزاع قلبي بقسوة، فأخذتُ أبكي وأبكي، أرجوه أن يترك قلبي مكانه، ثم حاول احتضاني بقوة فقمت مذعورة، جسدي يرتعش، وعرق يتصبب من وجهي، وقلبي ازداد خفقانه، استيقظتُ وأنا أقاوم حضن القوى الخفية، لكنها رحلت، يبدو أنه استمع لتوسلات أمي المكتومة أو لاحظ تشبث أختي الصغيرة بي، فأعطاني مهلة لبضعة أيام أخرى حتى أستعد.

كم من الوقت مرّ؟ لم أتأمل ظهور الشفق الأحمر، أو لمعت عيني بندى الصبح ونسمات الليل الهادئ، استيقظت على أصوات ابتهالات النقشبندي في الجامع القريب، جلستُ في البلكونة أحاول تهدئة دقات قلبي اللاهثة من الحلم وتفسيره، لا أعرف تفسيرًا لأحلامي أبدًا!

استسلمتُ لتنهيدة طويلة موجعة، حاولت الاستمتاع بصوت الدجاج والديكة المزعج بآذان كاذب طوال الوقت، وهي تقوم بعمل ترنيمة رائعة بالنسبة لها، فهي ترد على بعض بوعي رومانتيكي. فكل ديكة المنطقة تصحو معًا لتوقظ الناس، وكأنها ساعات الله على الأرض،

فمنذ آذان الفجر وهي تؤذن حتى توقظ الناس، تمامًا كالمنبه المخترع لإزعاجنا حتى نصحو، فتردد الديكة رنينًا طبيعيًّا مستمرًا دون ملل... يا لها من كارثة، أتظل هكذا حتى الصباح؟

إذن فهي لن تصمت أبدًا.

لم أكن أدري ما علاقة الشفق بصياح الديكة وهروب الفئران والعرس لجحورها، وما علاقة كل هذا بصراخ مخيف على الصبح دائمًا ما يكون على ميت قبل أوانه؟ لم يكن فوق الأسطح أطباق دش، لم يكن سوى غيات حمام كبيرة أستمتع بمتابعة سباقاتها وقت المغرب كل يوم من فوق السطح.

أحاول تفسير الحلم على التليفون مع صديقتي "عاليا"، أجلس مكاني باستسلام أسترجع الحلم ثانية، يزعجني رنين آخر، يبدو أن هذا الشيء المرعب آثر ألا يرحل من المكان خالي الوفاض، وعندما أجبتُ على التليفون جاءني صوت عمي سعيد، فرأيت ذلك الشيء يخرج من غرفتي متسللاً إلى عمي عبر أسلاك الهاتف.

كما تعرفون فإن سعيد أخو إبراهيم الأصغر رقم ٧ من زوجة الأب النظيفة المصلية التي لم تتوقف يومًا عن التسبيح، وكان سعيد دائمًا مرافقًا لفاطمة وإبراهيم يقف بعيدًا يراقبهما وهما ينهران كل الأفكار المسممة، يُبعد عنهما العيون المخترقة بفضول القطط، ويساعدهما على أن تطول وقفة الكورنيش وهما معشقين في بعضهما، كان يطالبهما بأكثر من الاحتضان؛ رغم أنه كان يخجل من متابعتهما.

كان عمي هذا أقرب لنا، تمنيتُ لو تزوجتُ مثله، ففيه تجمعــت كــل صفات فارس أحلامي، طويل، نحيف رزي الشعر، يغرقك في حنانـــه المتدفق منه بلا حدود، سيحزن عليه غير ابنه جيتاره، سيصر علـــى العزف وحده وهو ثابت في ركن الغرفة، ينتظر صاحبه ليـــأتي إليـــه مداعبًا وهو يدق على ظهره دقات راقصة قبل بدء العزف. كنت أهيم بعينيه البريئتين، ليس لدي أسباب للحزن عليه، فقد استرد الله أحــد ملائكته المتعبين على الأرض من العيش وسط عجائن البشر.

يرتدي "أيمن" ملابس أبيه رغم وسعها عليه، ينتهز فرص غياب أمه وإخوته عن البيت حتى يبدأ بالعــزف على جيتار أبيه لأنهم يحرمونه من الاقتراب منه لأنه حرام، فهو المتسبب في موت أبيه المبكر، وهو المتسبب في ضياع مستقبله، عشق الجيتار أكثر من عشقه للفلوس، حتى أنه عندما قرر مرة أن يغير إلى "الأورج" أو "الكي بورد" نظــرًا لاحتياجات السوق الفني الجديدة، وما يطلبه أصحاب المحــلات مــن توفير لتكلفة الآلات الموسيقية، فالأورج يجمع كــل آلات فـــي آلـــة واحدة، بدأ يشكو عمي سعيد لمن يفهمه ومن لا يفهمه صعوبة ترك آلته التي اعتاد عليها وعشقها ليبدأ في أخرى، فقد كانت كل العائلـــة تنهره لحبه للمزيكا اللعينة، فالمزيكا حرام في حرام، وإن جرؤ "أيمن" واقترب من الجيتار، تنهال عليه النصائح من اليمين والشـــمال كـــي يفهم أن (هذا حرام). المزيكا حرام.

وكان يجلس معي بحب غريب، ويقول لي:

"تعرفي ياريم، العيلة دي غريبة قوي، كلهم سافروا للخارج وركبوا طيارات وأكلوا من أكل الأجانب وفلوس الأجانب، وبيشوفوا عيشتهم،

وعيالهم اتربوا في مدارسهم، ومع ذلك بيرجعوا من هناك يقولـــولي حلال وحرام، دا غير مراتي اللي عايزانى أشتغل مدرس ولا ســواق تاكسى علشان أجيب فلوس.. طب ما هما مصوا دمي كله لحــد مــا شعري أبيض كله وأنا عندي ٣٥ سنة، عايزين مني إيه تاني؟.. أنا ما أخدتش منهم حاجة، ومش هاخد منهم حاجة، ونفسى بس، الحاجة الوحيدة اللي نفسي فيها؛ إن حد يسمع حتة المزيكا اللي أنا باعملها للعيال في المدرسة اللي باشتغل فيها.. ولعلمك بقــى أنـــا هاســيب المدرسة دي يابت يا ريم، واللي يحصل يحصل، أنا مــش هــاموّت نفسي بالحيا".

بعد أقل من أسبوعين ترك المدرسة، وقامت الدنيا ولم تقعــد لهــذا الجنون الذي أصابه، وجلس بالبيت يعزف علـــى الجيتـــار وزوجتـــه تخانقه، وأولاده ملتفين حوله بمنتهى السعادة، شـــغوفين بـــه غيـــر مهتمين بما ترميه أمهم من طوب ودبش على أبيهم. وبعد أن انتهى من عزفه، أخبرهم أنه سيبدأ في العمل الجديد الــذي يحبـــه قريبًـــا، ووزع عليهم قبلاته ودخل غرفته ليؤلف لحنًا جديــدًا، تســـلل ابنـــه ليجلس بجانبه، ترك جاره وأخذ يداعب ابنه ويراقصه ويحمله ويهبده على الأرض، يضحك على أيمن بسقوطه على الأرض كأنـــه ميـــت، فأخذ أيمن ينهره وهو يضحك ويقول له:

- "خلاص يابابا قوم، كفاية هزار، خلاص عرفنا إنك مت"

وهو يضحك... طالت نومته على الأرض، بدأ أيمن يقلق فعلاً، استمر في النداء:

- "بابا قوم، قوم، خلاص، كفاية" وهو متحشرج الصوت لاستشعاره بالخوف الحقيقي من هذه النومة.. "والنبي يا بابا قوم.. ماما.. ماما ..."

لم تكن موجودة في البيت هي والبنات، لذلك جلس بجواره أكثر من عشر دقائق لايفهم شيئًا، ينظر له ويهزه ويتكلم له، إلى أن تأكد بشعوره الطفولي أنه "مـــــــاات".

- ٢ -

كان إبراهيم يحبه كما أحب عمتي الصغرى أيضًا في عائلة أمه، فهو أخوه من أبيه، وبالمناسبة عائلة جدي هــذه كثيــرة فــي الوفيــات المفاجئة، وهم يجيدون التعامل مع الحزن جيدًا. منــذ وفــاة عمتــي "سعاد" - بالمناسبة أيضًا لا أعرف إن كنتم تعلمــون أم لا فأنــا لــي عمتان اسمهما سعاد، واثنتان اسمهما ســوزان، واثنتــان فاطمــة، واثنتان زينب، واثنتان علية.. نعم، فكانت إذا ما حملت واحــدة قبــل الأخرى أرسلت جواسيسها ليعرفوا ماذا سمت الأخرى فتسمي هــي البنت القادمة على اسمها. وقد كان عمة لجدي باسم وعمة لجــدتي بنفس الاسم، شيء يثير الجنون بينهما، وقد كانت إحدى الســعادين الأولى التي كانت تعمل كمديرة علاقات عامة بفندق "مينــا هــاوس" وكانت صديقاتها من جنسيات عجيبة يزرنها بالبيت وتســافر لهــن، وفي سن الــ٣٥ عندما ماتت بشكل مفاجئ، بعدما طلبت طبق فــول بالزيت والليمون، ثم نامت ولم تقم إلا لأداء الشهادة فقط... ثم تبعتها بعد قصة طويلة مع مرض الكلى وغسيلها، والذي ماتت منه عمتــي "زينب" أو زينب الثانية؛ حيث كانوا ينادونها زوزو للتميــز، تركــت خلفها خمسة أطفال لا يعرفون أي شيء في الكون إلا أمهم وخالاتهم اللاتي سقطن واحدة تلو الأخرى من الشجرة، وهكذا تــبعهم جــدي وعمتي الكبرى.. كل هذا كان يحدث ليذهب إبراهيم فقط فــي هــذه المناسبات... أما الزيجات الكثيرة التي حــدثت فــي العائلــة، فلــم

يحضرها؛ رغم استدعائه رسميًّا لحضورها، إلا أن موقفه من أبيه وزوجته الحاجة التي أصبحت بركة كبيرة بعدما كبرت في السن وهدّها الزمن، وكانت تحاول قدر استطاعتها استمالته لشعورها أنها ظلمته ظلمًا كبيرًا وحرمته من أبيه وأموال أبيه التي لم يمهلها القدر للاستمتاع بها، فقد التف عليهما أعمام إبراهيم الذي ترك لهم الجمل بما حمل، ولم يطلب منهم أبيض أو أسود وترك لهم ساحة القتال على المدبغة والمحلات، حتى فقدها جدي وزوجته، وجلس مريضًا، لم يسنده إلا فتات بناته من عملهن، وبالطبع لم يسانده ولده الكبير الذي هو إبراهيم لأنه كان بعيدًا فقد تزوج وأنجب ولم ير منهم ولم يسمع عنهم، ولكن أحيانًا كانوا يذكرونه ويغضبون منه لعدم زيارته لهم، ويعاتبونه على هجرهم... إنها حقًّا عائلة حنونة!.

ما تبقى من عائلة جدي الكبيرة المكونة من ستة بنات وولد، عمة في مصر وواحدة في إنجلترا، وأخرى في المنوفية، ومنزل مهجور في باب الخلق، برائحته التي طالما تمنيت أن أعيش فيها طول الوقت.

كم أحب تلك الرائحة!!

- ٣ -

أقف خلف القضبان بضحكتي البلهاء بإحساس النعـاس أتأمـل أولاد الجيران؛ ميزو وأحمد وآمال بنت الصعايدة، وحنان؛ وهم يلعبون أمام شباكنا وكأنهم يتعمدون إغاظتي، لم أكن أنظر لهم بغيرة أو حسد أو حقد، إنما بحزنٍ نادرًا ما تجده في عين طفلة لا هي فقيرة ولا يتيمة. كانوا يشاغلونني محاولين اللعب معي من خلف القضبان، يسـاعدني في ذلك أن الشباك في الدور الأرضي؛ وهو الدور الوحيـد للبيـت؛ يسألونني بخبث...

ميزو : هو إنتي بنت العفاريت العايشين هنا ؟ ما شكلهم؟..

إنتي اسمك إيه؟!

أحمد : لماذا لا يخرج أحدهم أبدًا؟

آمال : لكن إنتي شكلك لا يشبه العفاريت.

حنان : اخرجي العبي معانا، إنتي ليه واقفة ساكتة؟

أما الطفل الخامس، وهو الوحيد الذي كان يجلس طوال النهار أمـام الشباك ينظر لي في صمت مثبتًا عينيه عليّ بذهول غير مبرر، يقف صامتًا ينتظر أن أجيبهم على الأسئلة.

أتركهم بلا إجابة وأدخل لأمي الساكنة مكانها على كرسي الصـالون القطيفة؛ الذي يبدو قديمًا؛ تحيك بعض الجوارب والجلاليب الخاصـة بها، وأسألها بهدوء وإلحاح طفولي: ممكن يا ماما أخرج ألعب مـع العيال في الشارع، بيندهوا عليا... فترد عليّ بعصبية وملل:

- أصل يا ماما أبوكي قافل الباب بالقفل من برة ومش هاعرف أفتحه لكِ دلوقتي.. أصبري بقى".

أسمع الكلام مستسلمة عائدة لمكاني أمام الشباك... وانتظر الأطفال حتى ينتهوا من اللعبة التي يلعبونها الآن.

ينادي عليّ الطفل الصامت:

- هيا اخرجي.

- حاضر، عندما يحضر أبي ليفتح لي الباب.

تنظر لي أمي نظرة فيها شفقة وحزن على حالها، وهي تتذكر كيف وصلت لهذا المكان الذي يطلق عليه الناس بيت العفاريت.

هكذا يستمر حال أمي وحالي وأخي البكري "فادي" !

في هدوء تام يغط الشارع الطويل الذي نسكن فيه في النوم، يأتي بخطواته الخفيفة على الأرض، والتي لا تسمع لها صوتًا، يلمح الناس المتلصصين بين شقوق البيوت القليلة الموجودة في الشارع، والذين دائمًا ما يختبئون في الأسطح أو الخرابات مع الكلاب والقطط كي يراقبون القادم؛ لأنهم سوابق أو هاربون من البوليس. كان معظم سكان المنطقة من الصعيد، إما عليهم ثأر، إما قتلة وسارقين.. أما العائلات القليلة المحترمة والتي تنحدر من سلالات ريفية، فتجد منها رجلاً يقف في بلكونة متخفيًا خلف ستارة، وسيدة تجلس أمام بيتها، فتختبئ قبل أن يقترب ظل رجل قصير القامة يسير على الأرض كأنه في طريقه للسرقة، في يده شنطة "سنسونايت" سوداء، وما إن يقترب حتى يعرفون أنه الأستاذ الصحفي الذي يسكن في بيت العفاريت!

يقترب من باب البيت، وبهدوء شديد وتوجس بادٍ على ملامحه وهو يتلفت يمينًا ويسارًا وفوق وتحت، يظهر المفتاح من جيب البالطو الذي يرتديه، يضع المفتاح بهدوء ثم يفتح الباب وهو في عجلة كي لا يراه أحد وهو يدخل البيت بحقائبه.

بمجرد دخوله حوش البيت، نفتح أنا وفاطمة الباب الداخلي للبيت وأخرج مهللة على أبي أنا وأخي، وبمجرد جلوسه على الكرسي، أطلب منه...

- بابا.. بابا.. افتحلي الباب والنبي علشان ألعب مع العيال في الشارع شوية.

- حاضر ياريم، هاتلعبي، بس مش مع العيال لأنهم ناموا خلاص، حتى تعالي بصي من الشباك، أهو، بصي، مافيش ولاحد ماشي في الشارع، كلهم ناموا.

- ماشى يابابا، ممكن الصبح؟

- آه.. طبعًا... تحبي تتفسحي مع بابا؟

يأخذني من يدي الصغيرة، ويعاود رحلة التوجس والقلق في الخروج من البيت حتى باب الشارع، يتلفت يمينًا ويسارًا، وينظر أعلى الشبابيك والبلكونات حتى يطمئن إلى أن لا أحد ينظر عليه ويراقبنا أنا وهو... يالا ياحبيبتي أقعدي، تشربي إيه؟

- أي حاجة يابابا.

ينادي على القهوجي "فوزي":

- حجر معسل وشاي، وحاجة ساقعة للآنسة الصغيرة.

فيجيبه فوزى القهوجي:

- عيننا للأستاذ الصحفي والآنسة الصغيرة، وإنتـــي بقـــى هـــاتبقي صحفية زى بابا؟

أنظر له في خجل، ولا أرد.. فيعلق القهوجي:

- شكلها ذكية وهاتبقى زي حضرتك يا بيه.

- والله اللي أنا فيه مش أملة يا فوزي، يارب يكون حظهـــا أحســـن مني.

يمسك بابا ورقة من ورق الدشت الكثير الذي معه، ويعطيها لي:

- امسكي يالا.. اكتبي هنا أي حاجة، وأنا كمان هاكتب أهه.

- ٤ -

الجمعة أجازة الجورنال، نسمع طرقًا على الباب قبل صلاة الجمعة بساعة.. فتح الباب وجد بعض الرجال الذين ارتدوا الجلابيب البيضاء، فقال لهم؛ أخيرًا:

- أأمروا... وهو متجهم الوجه، وعصبي، فليست المرة الأولى التي يقتحم هؤلاء الجلاليب سجنه.

- نحن ندعوك للصلاة جماعة يا أخ إبراهيم.

فأجابهم باللغة العربية كما يتكلمون باستعراض:

- أنا لا أصلي، ولا أفضل أن يأتي لي أحد ليأخذني للصلاة، ثم إنكم تدقون أبواب الناس هكذا بلا قلق ؟! أليس من المحتمل أن تفتح زوجتي أو أختي، أهذه تعاليم الدين يا شيوخ ؟!... يالا مع السلامة.

يغلق الباب بشدة خلفهم، ويعود لأمي التي تقوم بإعداد طبق الفول والبيض وباقي إفطار الجمعة المتميز.

- تخيلي إنهم عايزين يعلموني إزاي أعمل علاقة بربنا !

كان رأيه دائمًا أنه ليس لأحد علاقة بهذا أبدًا، فلا يحتاج أي إنسان دعوة من أحد كي يقابل الله، وأنه سيصلي وقتما يشعر بذلك.

كان شابًّا له أفكار ثائرة متمردة، يرفض أي قيد، حتى عندما قرر الزواج لم يكن يقصد أن يأخذ القرار؛ بل جاء هكذا في غفلة منه، رغم عشقه لفاطمة وغيرته عليها عندما كانت تسير كالبطة الناعمة بضفيرتها السوداء العريضة جدًّا التي تصل إلى ردفيها، وشباب

المنطقة كانوا "يموتون" في مشيتها وهي متجهة لمدرستها الابتدائية، وكان هو أجمل مراهق في المنطقة، ويبدو كأنه ابن أحد الباشاوات الذين يسكنون حي الحلمية القريب، واستمرت علاقته بها لأكثر من عشر سنوات كما تعرفون، تنتظره ولا تمل من ألاعيبه العاطفية في التهرب من المواعيد بينهما، والتي كان لها طعم خاص، حيث كانت تقف بانتظاره أمام عمله في ساعة متأخرة من الليل الذي يعطي إحساسًا بالسكينة في ظل هطول المطر والهواء البارد، كان يتأخر عليها دائمًا، وما إن يأتي يأخذها من يدها ويهيم بها في أرجاء القاهرة ما بين حديقة الأندلس الهادئة وكورنيش النيل والمنيل والمعادي، حيث لا يجتمع معهما إلا مفردات الطبيعة المجردة، ينسيان عالمهما وأحداثهما اليومية حتى شخوصهما القريبة، وكان أحيانًا يصحب معه عند لقائها عمي "سعيد" الذي كان يشبه البنات وهو صغير.

أصر الحبيبان على الزواج، إبراهيم لايملك حق أي شيء ولن يساعده أحد، وبطة فقيرة هي الأخرى، ويحب الطرق الصعبة التي تحتاج لحرب ونضال، ورغم أن جدتي سهلت عليه الأمر كثيرًا، إلا أنه لم يتشجع لخوض تجربة الزواج، وحدث أكثر من مرة أن ذهب بثمن الشبكة لأهل فاطمة، ثم يعود لأخذها بأي حجة.

الزواج عنده عقدة ليس لها حل، فلماذا يتزوج؟ ومن الذي سيربي الأولاد؟ فدائمًا ماكان يقول لفاطمة: "أنا حتى لم أعرف كيف يلقنون الأطفال الحروف الأولى كي يحفظونها؟ بل إنني لا أعرف متى يشعر

الطفل برغبته في احتضان أبيه، لماذا أتزوج؟.. فعالمنا لا يستحق أن تُولد فيه أطفال.

لولا صبرها، والنصيب الذي كاد يتسبب من زواجها بابن عمها الذي يضع عينه عليها منذ كانت تذهب لهم ويلعب معها وهـــي صـــغيرة، والذي أصبح ميسور الحال غنيًا، ويدلل زوجته بحب وولـــه تحســـد عليه، لكن فاطمة لم تتأثر بأقاويل الجيران ولا إلحاح الأهـــل الـــذين فقدوا الثقة في حب إبراهيم لها، في أن تترك إبراهيم لحـــال ســـبيله لأنه غير قادر على الزواج وغير متحمس لهذه الخطوة كأنها نهايته.

§ العشر سنين الرابعة

تتهامسن الفتيات في الفصل عن أحبائهن، ويظهرن صور الأولاد .. لا أغتاظ حقيقة، ولكني أصمت وأتأمل وأسأل نفسي :

- ترى هل سيأتي عليّ يومًا أحمل في حقيبتي صورة لحبيب ورقم هاتف أطلبه إذا ما تخاصمنا ؛ فأطلبه لأسمع صوته وأغلق الخط ؟

- ١ -

كنت الوحيدة بين أصدقائي التي لم تكن تجيد لغة التخاطب عن بعـد؛ أي عن طريق الهاتف؛ منذ كانت صديقاتي تعاكسـن الشـباب، فـي الوقت اللاتي اعتقدن فيه بقدرتي على كشف المستور عن الأشخاص وقراءتهم من خلال موهبتي في قراءة الفنجان؛ التي تعلمتهـا مـن جدتي "أم حسين". واكتشفت بعد كل هذه السنين من خلال لهفة الناس عليّ وتصديقهم لي ولشفافيتي أن هناك اعتمادًا حقيقيًّا عليّ، وأننـي لست مجرد فتاة قصيرة صغيرة لا عائد منها ولا فائدة، ونسيت كيف كنتُ أسير بجوار جدتي كالفأر المذعور من الأضواء المعلقة في مولد السيدة زينب...

هل ربع قرن من التأمل للأحداث الجارية في شقوق المباني الكبيـرة ليست كفيلة بتكوين العظم اللين في ظهري؟ أليست كفيلـة بجعلـي أسِير منتصبة القامة رافعة الرأس ومحدقة عيني في العالم بجرأة؟

عمومًا بدأت أيامي تنفلت مني بين أرواح الأصدقاء ويجب عليّ اللحاق بها، فمن المهم أن يكون لدي علاقة مع رجل مثل كل الفتيات.

حملت حقيبتي الزرقاء المثيرة للتساؤلات، أعلنت على المـلأ أننـي وافقت على الزواج من ذلك الرجل العاجز الذي خاف مـن الاقتـراب من جسدي معتقدًا أن استنشاق أريجه يكفي، ولأن الوضـع متـوتر

الآن، تظاهرتُ أنني من هؤلاء الفتيات غيــر المكترثــات بالأســوار الطبيعية.

عرفت أماكن السهر التي تجمع عقليات مختلفــة، النــادي اليونــاني القديم والجديد، الجريون، ستلا، الحرية، وكلها أماكن لناســها فقــط الذين يتجددون بفعل لعبة الزمن العادية.

أسمع الموسيقي الصاخبة وأصوات كعواء الذئاب المقتولــة، عيــون تحملق في السماء والأرض، في كل الاتجاهات، شيء مرعب، ففــي كل مرة أعود من رحلتي، أجد إبراهيم منشغلاً برجــل أســود أشــبه تمامًا بمارد الفانوس السحري وبأذنيه قرط، يطلب من هذا المارد أن تمطر السماء أطفالاً وردية، وأن يعطيــه بعــض ســجاجيد الصــلاة الحمراء القطيفة، والرجل لا يجيب بنعم أو لا، فيطلب منه بحدة للمرة الثانية أنني أريد عينًا صافية تحرس لي حقيبتي، وإن سمحت أيضًــا ببحر من اللبن الحليب لأن الماء بحاجة إليه، فالأولاد ضعفاء، والماء "عكر".

لم يجب الرجل حتى الآن، يثور، يصفعه بقــوة ضــاحكًا باســتهزاء ويختفي... فلم يعطه أحلامًا مرت عليها النجوم وأعدتها للإضاءة في حجر أطفاله المحبوسين والهاربين؟!

فيتوجه للنجوم بالرجاء لتعيد إليه أطفاله صغارًا كما كانوا، فحرقــت النجوم عينيه كإنذار لمطلبه، فخلعها عن وجهه وحمل الحقيبة عائدًا لفاطمة، وجدها تبكي بحرقة لأنها تسمع أغنية فيــروز "طيــري يــا طيارة طيري ياورق وخيطان.. بدي أرجع بنت صغيرة عــا ســطح الجيران، وينساني الزمان على سطح الجيران".

يغلق الأغنية بعصبية ويدفع بالحقيبة في وجهها، ويظل الخلاف قائمًا على حمل الحقيبة حتى تقع منهما في قاع العمر المتــردد بينهمــا، فتنزوي أمانيهما الملقاة داخلها، يتبادلان الاتهامات بأن السبب فــي انزلاقها أنها دعت الصغيرين يهربان، وأنه جعل الكبيرين يختفيان في جيوب الحقيبة.. انشغلا وقتًا طويلا بالأسباب حتــى وجــدا الصــغار متراصين على أشجار كبيرة تقف صامدة.. ورغم انشــغال إبــراهيم وفاطمة إلا أنهما على يقين أن أغصان الأشجار عندما تنكسر تــدمع السماء بنداها في غير أوان، وتضطرب الطيور الساكنة في مواقعهــا وكأن إبر الشيطان وخزتها.

وقفْت أحدث الأشجار التي أقف عليها ونزلت منها وهما يتنازعــان، أسألها:

- كبرياؤك مهزوم؟! كذبة هي؟

يهرعون جميعا لإنقاذ الأغصان الباقيــة فترفض جوانــب الأشــجار المساعدة، يترقبون ثباتها...

فجأة تندلع نيران من أسفلها، فيعتقد الجميع احتراقهــا، إلا فاطمــة، فالنيران تحرق الأخشاب، لكن الأشجار لم تكن يومًا مجرد خشــب.. فالشجر كبرياء! فليعلم الواقفون أسفلها بترقب أن دمع السماء الندي هذا كان أقوي من النيران، فهو يطفئ الحريــق، ويشــد الأغصــان، ويعاقب الطير على هجرة الشجر.

- ٢ -

وصل عمري الآن للعشر سنين الثانية، ليتهم مـا تركـوني أسـتظل بجدتي التي سكنت الدور السادس بشارع الجزيرة؛ أجمـل مـن رأت عيناي، مازالت مطبوعة في ذاكرتي وهي تقف أمام المرآة، تخبرني أنا حفيدتها الصغيرة برغبتها في صبغ شعرها بلـون ملائـم علـى الموضة، وأمنيتها القديمة في الزواج من "عمـر الشـريف" لليلـة واحدة ثم تموت لأنه يشبه الرجل الذي أحبته قبل زواجها من جـدي وهي في سن الـ١٢...

لم تدرِ بوصولها للسبعين إلا عندما احتاجت يـدها لكـريم مرطـب، وأصبح من المهم الحفاظ على قوامها كي لا تبدو عجوزًا، كانت تنزل في الصباح عند ذهاب جدي إلى العمل ترعى مصالح العائلة، تحتضن يدي في يدها وتلفلفني معها في شوارع أهلها الذين ترعاهم بالخير، وقد كانت دائمًا تسبقني بخطواتها في الطريـق بمشـيتها السـريعة أحاول اللحاق بها بخطواتي الصغيرة، وعندما تنتبه جدتي حميدة إلى أنني أتأخر عنها تعنفني قائلة: "إتلحلحي يا ريم، مفيش وقت، عايزة أرجع البيت عشان الحق أحضر الغدا لجدك، يالا مفيش وقت، إنتـي شاطرة وسريعة طالعة لـ ستو).

أذكر كيف كنت أشعر بالزهو وهي تشبهني بها، فتزداد قوتي وأحاول مد رجلي كي ألحق بها، وهي تقفز على الأرض بجلبابهـا الأسـود الأنيق وطرحتها السوداء الخفيفة التي تلفها على شـعرها وصـدرها

فوق "الآمطة" السوداء أيضًا، و"شبشبها" الذي يساعدها على القفــز بخفة.. عشقت الأسود الذي ترتديه جدتي والذي أصبح بالنسبة لـــي رمز البهجة والنشاط...

وهكذا كانت أيامي مع الجدة كل يوم لأحد أقاربها.

ومثلما تحملت البرد وأنا لا أرتدي الصوف، وتكتمت غضبي عنــدما كان يجرحني أحد، وتحملت آلام البلوغ وأبي وأمي لا يدريان، وظللت أعاني مع الأصدقاء بلا آهات، بل كنت أتباهى أحيانًا أنني لم أخــدع أبدًا، مثلما تفعل جدتي تمامًا !



مرت أعوام جدتي كريمة دون قصد منها، تلك الأيــام التــي كانــت تتأرجح فيها وتؤرجحها.. اليوم تنزوي داخــل تابوتهــا ذي الأربــع جدران، تحتضن ذكرياتها في فراغ اليدين، تغمض عينيها بصــعوبة لتستشعر طعم الموت، تحتضن الأيام الخوالي وأيــام العــذاب التــي اختلطت حتى تساوت، فلم تعد لذكري أي ذكر لديها زرع أخضر مات ساقه وظل أخضر، فعرفت أن هناك وقتًا عندما تشعر فيــه بــالموت يظهر لك ما يؤكد أنك على قيد الحياة.

تصعد السلالم إلى الدور السادس يوميًّا على شوك مزروع، يسيل من عمرها دم، لا بل يسيل عمر، الأحزان تثقل حذاءها، ببــراءة كاذبــة صعدت إلى السماء بين سحابات بيضاء حشرت بينها تحاول الفكاك،

عندما يمطرون تمطر معهم بكل أحزانها وأحزان البشـــر فـــي بحـــر الحياة الزجاجي، لتنسى والسحابات كيف كانتا في التجمد راضيتين!
أفاقت على صراخ يضحك، يبدو أن السحاب يمطر علـــى العاشـــقين، وما حضن الذكريات داخل تابوت العمر إلا وهم تعيشه!
تعتبر نفسها الآن وليدة، ستتخلص من كل هذا الوجع، فهي لم تعش حكايات واقعية بعد، ترى كوابيس مفزعة، تســتيقظ، تشـــرب مـــاءً وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتقرأ تعاويذها للعودة إلى النـــوم، لكنها تنتظر واقعًا يخبط بأجنحته على شباكها تلك الخبطات المربكة، وتلعن الحظ الذي لم يساعدها في الزواج من الشاب الوســيم الـــذي أحبته وهي صغيرة.
الشمس في الصباح كانت تنتظر عيونها، تتأملهـــا وتعشـــقها لمـــرة واحدة، متأكدة هي أنها ستنتبه لها هذه المرة لتعطيهـــا خيطًـــا مـــن إشعاعها، لديها صندوق فارغ يرغب في محتويـــات جديـــدة، صـــور وخطابات وأشياء صغيرة لذكرى ستأتي!
تثق تمامًا في الشمس، فلديها قلم بممحاة ستستخدمه، ستسير علـــى أربع، تتأمل العالم بصمت، ترتعش من هزهزات الضوء على الحائط، تهلل بزقزقة العصافير ومداعبة القطط.
كثيرًا ما وقفت فاطمة ندًا لأمها في كل شيء، وأحيانًا كانت تترك لها البيت لتذهب إلى أختها، فهي أهون من عيشتها فيه!
تندم فاطمة الآن على أنها لم ترضِ أمها، يا ليتها ويا ليتها...
تنظر الآن لابنتها "مي" أصغر أولادها التي تجتهد في أن ترد لها مـــا فعلته فاطمة بأمها، فتذهب طوال الوقت لبيت الجد والجدة المهجـــور

الذي عاشت فيه بطة مع أبيها وأمها وإخوتها منذ مجيئهم من كفر الشيخ أقل مما عاشت عند أختها "لبنى"، تبكي "فاطمة" كلما سمعت أغنية قديمة لعبد الوهاب وأم كلثوم وقنديل أو حتى لو شاهدت فيلمًا أبيض وأسود كانت تبكي وهي تحاورهم وتحلم بهم حتى أصبحت تفكر في الذهاب إليهم أكثر من وجودها بينهم، تنظر إليهم وفي عينيها نظرات افتقاد مسبقة، فهي تعرف أنه لامفر من اليوم الموعود، لكنها تخاف عجالته.

ترقد جدتي كريمة الآن بسلام، تحمد الله أنها غيرت لون شعرها وأنجبت ستة بأولادهم العشرين وأنها سعيدة لأنها ماتت دون أن يراها أحد، وهي تضحك ضحكتها الأخيرة بعد أن رأت تلك الخبطة المربكة على شباكها في الصباح، وبعد أن ملأت صندوقها بالكثير من الصور لأولادها وأحفادها وعشاقها الجدد الهائمين في جبروتها وإصرارها على الحب.

§ العشر سنين الخامسة

كالفراشات الملونة أحلق بين الأصدقاء المتعبين ،

أعيش في دور مريم العذراء ، وأرفض اختراق الحجاب الحاجز

تحت البطن ، وأرفض كذلك أن يسب أحدهم الفتيات

المخترقات بالعجز بأنهن عاهرات.

- ١ -

كلما مرّ الوقت أكتشف لماذا جُنّت كل الفتيات اللاتي عرفتهن، يبـــدو أنني أتمتع بقوة ما تجذب من مسهن الجن، ربما هي قوة بلهاء كقوة الفيل، لكن الأهم أنها لا تغضبهن أبدًا، يرينني الآن أتغير، فجأة أقوم بنكش شعري، وأرتدي "بدي" ضيق وبنطلون.

لماذا جُنّت كل الفتيات اللاتي عرفتهن ؟!

هن لا يتغيرن ببطء، لا يعترفن بالعلامات، حصلن على ثقتهن الزائدة بأنفسهن باكرًا، لن أرضى مثلهن بالسجن، وأن يفض غشاء براءتي أول طارق لبابي، لا يعجبهن أبدًا تأثير هـــذا الغشـــاء علـــى وجهـــي ببلاهته، لن أجاريهن حتى لا أجد نفسي في آخر الأمر مصابة بالمس.

كم هو جميل أن تكون منديلاً أبيضَ بين يدين طاهرتين، وأن تصــبح عصفورًا يلتقط الحب ليضعه في قدر العاشقين، كل مــا تمنيتــه أن ينزويا بعيدًا عن أماكن وسط البلد وأن يبتعدا عن عيون البوم العمياء والقردة والخنازير.

لألحق بآخر طائر صغير يحلق في ســماء عقلــي، أســير بشــعري "المنكوش" وثقلي على الأرض، أتأمل الطريق الطويل السائرة فيه مع حقيبتي الزرقاء التي تشاركني كل خطوة، أنظر إلى الســاعة نظــرة تائهة، لم أتبين الوقت، أين أذهب؟!

لقد قررت "عاليا" أن تسكن البيت ولاتخرج منه، واتجهــت ميولهــا لتدين؛ كنت دائمًا ما أدفعها له وتتجاهله، وهنا تأكــدت لــي نظريــة شديدة الخصوصية، فالأنثى عندما تحب تعود عذراء، حتى وإن اخترقها كل رجال العالم، تعود شفافة كوليدة لم تقترب منهــا أيــدي حلاق الصحة ليختنها، لتبدأ رحلة انتهاك الأنوثة في مجتمــع قــذر، عادت "عاليا" لعذريتها وقررت أن تمارس تلك العذرية على زوجهــا وعليّ أنا بالتحديد؛ فتصلي الصلوات جميعها ونوافلها وتصوم تطوعًا وتذهب لشيخ طريقة، ونذرت نفسها إلى البيت والبنت وتخلت عن كل الأحلام التي لم تحلمها أصلاً.

وفي طريقها الجديد، أرادت أن أنتمي لهذا العالم الذي خرجت أنا منه بالفعل عن رضا وقناعة، فلم أسعَ لادعاءات بالحرية لا داعي لهـــا، ولم ينتهك جسدي عابرو السبيل، أصرتْ على أن أنتمي لها؛ لعالمها التي تمت تنشئتي به سابقًا، لأفهم بعد ذلك ما هو الدين وما معنـــى الصلاة ومعنى انتمائي للبيت، هي بدأتْ من الآخر، وأنا بـــدأتُ مـــن البداية، وحرص زوجها على دفعها لأن تـــأمرني - بلباقـــة - بعـــدم الذهاب "للتكعيبة" فالجميع يعرف أننا أصدقاء وهذا من شأنه أن يهز سمعته، فكيف تصادق زوجته فتاة تذهب للمقهى وتشـــرب الشيشـــة وتجلس مع الأدباء المبتدئين؟ من المفترض أنها متحققة، فقد نشرت لها كبريات الدوريات الأدبية، وحصلت على جـــائزة، لا يجـــدر بهـــا الاحتكاك بهذه الأماكن، فتعاركني "عاليا" بعنف لأتخلص من عـــاداتي القديمة التي طالما شاركتني فيها عن حب وتفهم لأن زوجها يتضايق من ذلك، متعللة باهتمامها بمصلحتي، فأتركها وأنزل، تطلـــب منـــي ضرورة الزواج تحرضني على ألا أذكر أمام العريس أننـــي أدخـــن؛ وهي تلك المنادية العظيمة بحريـــة التصـــرفات والحيـــاة والتوجـــه والجسد..

اختل توازني في فهمها، نعم، أنا لن أكذب، لا أفعل شيئًا مُهينًا لأحـــد ولا لي، هذه أشيائي الصغيرة التي أحبها، ولن أتخلى عنها لخاطر من لا سلطة له عليّ، إلا أنه صديق.

ربما لو كانت زوجتي أو هو زوجي كنت سأفكر كمـــا فعلـــت هـــي، ولكنني أستطيع أن أجزم أنني حتى لو تزوجت لن أتزوج إلا برجـــل يشبهني.

- ٣ -

كعادتي عندما يضيق صدري من الوحدة أذهب للسير لمسافات طويلة في أي مكان، وكان المكان هذه المرة هو "الحسين"، فبدأت رحلة السير من السيدة زينب التي أحب أن أصلي فيها وأعمل دماغ روحانية؛ كما يطلق عليها أصدقائي عندما يعلمون أنني ذاهبة إلى الصلاة في جامع السيدة زينب التي أعشقها دون معرفة السبب؛ ومرورًا بباب الخلق، أتأمل طفلة صغيرة جميلة، أنظر في عينيها نظرة ثابتة، لا تضحك ولا تصرخ ولا شيء، إنما هي تركز النظر في عيني، تمد ليَ يدها الصغيرة؛ تتلمس إصبعي، تقارن ما بين كف يدي وكفها، مستمرة في مداعبتها برقة، أحتضن إصبعها المكتنز متشبثة به تشبثًا عجيبًا !...

فهي تتعرف على عالمنا، تطبع صورنا، وتضع في صندوق ذاكرتها أشكال عالمها المحيط، تعرف أنها ستصبح يومًا فاعلاً ومفعولاً به، تحاول جاهدة أن تسكن روحها بالأرواح الطيبة التي ستتعامل معها ويومًا ما تميزها بمجرد النظر، ستندهش الأرواح من شفافيتها ولا تدرك أنها رأتها وعرفتها وهي طفلة،ينسى الناس دائمًا أن الأطفال يرونها بعمق شديد وهم رضع، وأنهم يكشفون سترها وترتبط تصرفاتهم بمعانٍ ما في أذهان الصغار. لذلك تتصرف الأرواح دائمًا أمام الصغار على اعتبار أنها غير موجودة.

أتركها لأكمل رحلة السير إلى الحسين وأنا أتأمل حال الطفلـــة، هــل ستمر البنت يومًا بكل الممرات والأزقة الزمنية المقررة لهذا العـــالم لأجدها بعد عشر سنوات وقد وصلت إلى النادي اليوناني مثلاً؟ حيث تجلس في ركن بعيد متأملة تلك البنت الكاتبة الرقيقة الجميلة، التـــي حلم كل الرجال المزدوجين بالنوم في أحضانها، استطاعوا جمـــيعهم تنفيذ الجرم، قاموا بتمزيقها بينهم إربًا إربًا، عنـــدما كانـــت تـــذهب للجلوس على أحد مقاهي المثقفين فيتنافسون على الفوز بها لهـــذه الليلة، يؤرجحونها ما بين فكرة وأخرى عن معنى الحرية المطلقة بلا قيود، وعن الحرية الجنسية للفتى والفتاة، وأنها أجمل وأروع من أن تظل هكذا دون أن تخرج بعد فترة من التنظيف أكثر تأنقًا ولمعانًا.

تسير بخيلاء وثقة، وما إن تصل لمجموعة أخرى حتـــى يجـــذبونها وسطهم.. لكن هذه المرة ليس هناك ألوان.

وصلتُ لسن الثلاثين، لن أهتم بالتأنق والشياكة المفروضة، لن ألفت نظر الشباب بسحر عيني وتموجات قوامي، سأذهب لقــراءة وجــوه وفناجين وأكفة، سأذهب للجلوس مع أناس يكبرونني بأحداث بلهــاء قبيحة ولن أندهش فاغرة فاهي من المهرجين المبهرين.

أذكر تلك الأضواء في طريق عودتي إلى البيت مع العائلة وأنــا فــي الرابعة من عمري هل تذكرون سبق وحكيت لكم أنظر إلى المبــاني والشوارع بتأمل، أحفر في ذاكرتي الطرق التي عبرتها وأنا محمولة على يد إبراهيم أسير في نفس الطرق التي أمرقها اليوم وحــدي أو مع الأصدقاء "قهوة الحرية، حوش الجلة، بن عبد المعبــود، قصــر عابدين، الحسين والسيدة زينب، محل الطرشي المزدحم دائمًا.
أكنت بالذكاء لأعود لكل هذه الأماكن وحدي رغم حرص إبراهيم عليّ وخوفه من أماكنه...



طويلة جدًّا فترة العشرينيات، عشر سنين بملايين الأشخاص والأفعال لماذا نضطر أن نتحمل كل هؤلاء الأشخاص، لم علينــا أن نــراعيهم ونلاحقهم ونضع العشر سنين بينهم وهم لا يكترثون لوجودنا بينهم؟!

لكنني سأفعل، وربما تنتج العشر سنين شخصًا أو شخصين يكملـــون العشر سنيـــن التالية، بالتأكيد لن أندم على هذا العمر، ربما سأحزن لأن هناك أحلامًا لم تتحقق خلالها، أو أنني لم أحقق حلمـــي الأكبـــر بالعثور على الفارس؛ رغم وجود الكثيرين منهم، ســـأحزن بتعـــال، سأخبر الجميع إنني سعيدة لأنني لم أتزوج قبل الثلاثين، لأنني كنـــت أحلم بالزواج من "جيفارا" أو "عبد الناصر" لأنهما قريبين إلى روحـــي ويزورانني ليلاً في الأحلام، وأحيانًا كنت أرى في أحلام اليقظة أننـــي كونت معهما صداقة خاصة بي.. فقد كانت فاطمة تحكي لي دائمًا عن عبد الناصر وكيف أنها صبغت جيـــب الألعـــاب الحمـــراء والبلـــوزة البيضاء بالأسود حزنًا عليه، وكيف بكت خالتي " لبنى" أيامًـــا عليـــه حتى تعارك معها زوجها.. وحكت لي أمي عن زيارة الراجل "جيفارا" لمصر في ١٩٥٩ وكيف أن العالم خرج في التواريخ ليتهافتوا علـــى رؤية المناضل الكوبي الثوري الذي يدافع عن حق أي مستعمَر فـــي أي مكان على وجه الأرض.. رمز التفاني لأجـــل الآخـــر.. يصـــطف الشعب على الجانبين وهو يمر هو وناصر يحييوا الناس المتعطشـــة لحرية لم تتحقق رغم موتهم لأجلها، وإزاي البنات والستات اتجننـــوا عليه وعلى تواضعه !.

في نفس أماكن إبراهيم القديمة، أرافق "شلة" دكتور كبير فـــي الأدب يقابل أصدقاءه القدامى بتاريخهم الطويل الصـــادق أو الملفـــق، لـــن تفرق! لكن المهم أن لهم تاريخًا صنعوه بأنفسهم، وهم الآن يلتقـــون في موعد ثابت كل أربعاء يعيشون شبابهم بطـــريقتهم، لا ينتبهـــون للعمر إلا عندما يقع أحدهم فجأة، فهم يشربون ويسهرون وكأنهم في العشرين، يتسامرون عن ذكرياتهم السياســـية والنضـــال والاعتقـــال وفترات زمنية بعيدة، يسبون في بعض القيادات، ويمتدحون أخـــرى؛ منصبين أنفسهم حكامًا ونقادًا عارفين بخفايا الأمور، يـــا لـــي مـــن محظوظة، يجب عليّ الفخر لأنني أجلس بين كل هـــذا العمـــر مـــن الأحاسيس والأفعال والذكريات.

رغم أن الجميع يعرف أن ما نمر به من أحداث لا نستطيع أبدًا التكهن بنهايات لها، لكننا نستطيع دائمًا أن نتكهن بنهايات لحكايات الآخرين، ونسمح لهم باختراق حواسنا والالتصاق بأرواحنا المنسوخة.

فهمت أخيرًا لماذا تحزنني فكرة الصور "الـــذكرى.. الماضـــي" هـــي مفردات لمعنى واحد، فحياتنا التي عشناها لم ندرك كيف كانت، لكـــن آخرون يكبروننا كثيرًا بإمكانهم أن يعرفوا كيف ستكون من الآن!

فقد تم تصويرهم وتعليق الصور من قبل علـــى الحـــائط، وهـــم الآن يجلسون مع ماضيهم يلعبون لعبة التنبؤ بما سيؤول إليه مستقبل فتاة صغيرة تشاركهم طاولتهم وهي في حالة من الأمل والطموح والتمرد،

كان إبراهيم يشاركهم ثورتهم على مقهى "النافورة" وانتقاله المؤقت لمقهى " البستان" وهو يقودهم بحماس.

قرر إبراهيم بوصوله لسن الستين أن يسعد أحيانًا لإحساسه أن الجميع يحبونه، وأن أولاده الذين أنجبهم وصرف عليهم دم قلبه انفضوا من حوله كلٌّ في طريق، رافضًا لطرقهم التي وضع لها البداية.

لديه إصرار على الانتقام ممن حطموا سور سجنه وهو الذي لا يعرف أن نهاية السجن إما هروب أو موت!

جاء الوقت ليعرف أن سور سجنه لم يكن عاليًا، وهو لم يكن أبدًا حارسًا للسجن أو حتى حاكمًا متحكمًا، ببساطة لأنه انشغل بإصدار الأحكام أكثر من تنفيذها.

رغم صغر السن البادي على ملامحه؛ رغم الستين؛ فهو يصر على العجز، يرفض شبابه ويصر على الوقوف بين المتظاهرين بالطرابيش في "وسط البلد" والحماس لفنانين صغار ظلوا صغارًا حتى الموت، تمنيت لو تمرد مرة واحدة على أي شيء آخر سواهم، أمن المهم أن يعود له جدي كي يتمرد ؟

ليس هناك من يمسك بالورق ليقيد عمر الحرية، ليتحرر من أسر المسؤولية التي لم يكن يرغبها يومًا، يلعن وجودنا ووجوده معنا، يقف بين يدي الله يبتهل له أن يخلصه من سجنه الذي لم يسع إليه لأنه لم يرتكب أخطاءً قط، ليستمر في الدعاء، لكن لا يطالبنا الآن أن

نسير في طرق مجهزة من قبل، تركها بإرادته، وليشــكر جــدي أن دعوته بأن "يرى ما فعله أبي معه في أولاده" تحققت.

أذهب لأشاهد وأشارك أحيانًا في هذا الضجيج والتوهان والانســحاب من الأرض التي تذكرني بالتصاقي بإبراهيم على المقهى وأنا صغيرة، وعشقي لرائحة التفاح المنبعثة في الجو، وحبي لهذه الصور المعلقة في الجاليرهات الخاصة، وأشكال أصحابها الذين أحببتهم وأنــا فــي رحم فاطمة، نعم.. كان أبي يأتي بعد منتصف الليل ومعه أصــدقاؤه، وكأن أرواح أصدقائه تتلبس أصدقائي تمامًا، كل من في المقهى على قدر كبير من الوعي والفهم وما عداهم لا يفهمون شيئًا، وربما أصبح يومًا إحدى ثماره الطيبة أو العطنة.

في مكتبي فتحت الراديو على القرآن الكريم وخفضت صوته كالعـــادة قبل حضور المدير؛ ذلك الرجل الريفي الأصيل، الذي تلمح في عينيه لمعة دائمة عنوانًا للطموح والإصرار على النجاح.

جاء من بلدته وهو صغير لا يملك إلا الصحة والستر، صبر وصــبر حتى صار من أغنياء البلد، وهو دائمًا ما يجلس بين الناس يتحـــدث بنعمة الله عليه، وكيف أن زوجته غير الجميلة التي اشـــترط علـــى والدته عدم جمالها لموافقته على مبدأ الزواج الذي كان رافضًـــا لـــه نتيجة صدمته في عائلة مجاورة تحايلت عليه ليتزوج ابنتهم العانس، وسيعطونه أي شيء يريد، ولم يكن موافقًا، كان كل تركيزه في أمـــه ودراسته وجده، لم يكن يشغل باله إلا بمستقبله فقط. وبعـــد تحايـــل الأهل عليه وافق على الزواج من هذه العـــانس، فحـــدثت المفاجـــأة وتقدم لها عريس معه مال وأرض، فرفضوه وأشاعوا في البلد، أنـــه هو الذي تقدم لها ورفضته، لديه عزة نفس منذ صغره، غضب غضبًا شديد من هذه الواقعة، خاصة أنه كان رافضًا تمامًا لهـــذه الخطبـــة، ولعدم إغضاب أمه التي ترضى عنه كل الرضا وتحـــافظ عليـــه مـــن الهواء، وافق بعد إلحاحها عليه بالزواج، فاشـــترط عليهـــا أولاً: ألا تكون جميلة ومن عائلة كبيرة وتعمل وتقبل السفر معه في أي مكان. وقد كان له ما أراد، عثرت له أمه على صاحبة تلك المواصفات، وتم الزواج بلا فرح كبير لأنه رفض أن يجلس هكذا في كوشة لـــ"يتفرج"

الناس عليه، فهو بطبعه يكـره التظـاهر والتفـاخر، فهـو ممـن يتواضعون بشدة رغم المشوار الطويل من الكفاح الذي خاضه منـذ عمله كموظف حسابات بسيط، إلى سفره للسعودية، إلى عودته ليتقلد هذا المنصب الهام، وهو دائمًا ما يجلس مع ضيوفه يسرد لهم حكاية هذا الكفاح، أنه بالرغم من عائلته الكبيرة في الشرقية واسمها اعتمد على نفسه، منذ أن حضر إلى القاهرة بهندامه الذي لا يتناسـب مـع مجتمع المدينة الحديث واجتهاده وعناده وجده وتمرده.

كان يذهب إلى زيارة بلدته بالصدفة لدفن ميت من العائلة أو لعمـل خير ما، يسير متأملاً لحالها وحال ساكنيها الذين لم يعرفـوه كمـا كانوا لا يعرفونه من قبل، فهو لم يكن يختلط بأي طفل أو شاب، إنما كان عاشقًا لحضن أمه فقط، ومنذ أن ماتت لم يبق له ذكري فيها.

أثناء سيره في البلد الآن وهو يتفقد حالها الجديد ومبانيها الحديثـة بالطوب الأحمر لفت انتباهه دكان قديم، نظر داخله، وجد فيه الرجـل الذي تزوج فتاته الأولى؛ فقيرًا ومريضًا وهي تجلس بجواره عجـوز واهنة. سار في طريق عودته بلا سلام أو كلام مع مخلـوق هنـاك اللهم إلا إحساس أكثر بالكراهية والفرحة لأنه لم يستمر ولم يتـزوج تلك الفتاة، حمد الله وتأكد اعتقاده أن القدر يحلم لنا أحلامنًا أجمل من الذي حلمناها...

مديري هو الذي اختلس منه سماع الراديو صباحًا قبـل حضـوره، والذي يهون عليَّ شعوري بأنني مجرد موظفة، وأنني أقضي يـومي مع زميلتي الحاقدة "تبوية" التي ترتدي زيًا موحدًا طول العام مخبئـة في درج مكتبها فئران وحشية لتطلقها على زملائها في وقت اللزوم،

كما تخبئ كل الأشياء القابلة للبيع على سبيل "تقليب لقمـــة العــيش" وهي لا تقترب تقريبًا من الماء إلا كل أسبوعين؛ هذا علـــى حســـب توقعي، وتضبط إجازاتها دائمًا في مواعيد ازدحـــام العمـــل، وأمهـــر سيدة تجبس قدمها بنفسها وتقوم "بضرب" الشهادات الطبية المزورة من الأطباء الذين يتقايضون بجريدة أو دفتر مطبوع مـــن الجريـــدة سرقة من وراء المدير، وتزوير الشهادات المرضية وقرارات العلاج على نفقة الدولة لمن يحتاج. باستطاعة "تبوية" أن تستغل كل ما هو روتيني في العمل، وتجيد كتمان مشاعرها تجاه الآخرين حتى تنفجر، ومن الممكن أن تقبل يد الشيطان للحصول على غايتها، وأن تضاجع ذكور القطط والكلاب في العمل معتمدة في ذلك على مظهرها العفن، فلن يتشكك أحد في أنها تقوم بذلك نتيجة لهذا المظهر الذي يوضـــح تمامًا لماذا لا تأتي إلى العمل وهي "مستحمية" أبدًا! فزوجهـــا يبـــدو عليه النفور الشديد منها، ولكن ماذا عساها أن تفعـــل معـــه ببطنـــه الكبير الممد أمامه مترين إثر بلع أموال الناس في تخليص الأوراق، فهو مسؤول محترم.

"سهام" تلك الأرملة البيضاء الجميلة التي لا يصـــدق أحـــد أن أكبـــر أولادها جامعي وهي فرحة بتعليقات الجميع على هذا، لكنها مضطرة أن تتظاهر بأنها لا تهتم بأي شيء إلا أن تربي أولادها اليتامى حتـــى لا يأكل الناس لحمها، لكنها تسعى بكل طاقتها وبقليـــل مـــن المكـــر للحصول على زوج مناسب تعيش معه شبابها المهدر فـــي الـــوادي الجديد مع ضابط جيش حنون جدًّا، يكبرها بعشر ســـنوات، عاملهـــا كأميرة، لكنه مات في سن هي في أشد حاجتها إليه.

أما زميلنا "أحمد" العائم الهائم في البنات رغم زواجه والطفلان فهو سلبي تمامًا تجاه ما يدور حوله ولا يهتم إلا "بالمزز" وهو يرقص على سلم قطار طنطا التي يأتي منها يوميًّا مع السيدات الكبيرات في السن أو الفتيات العانسات مستغلاً احتياجهن لرجل، لكن حجته في هذا أنه لا يرتكب معهن معصية، وبالتالي يخاف الله ويراعيه فيهن، هو لا يخون أبدًا!.

هاجمني الموظفون لاعتقادهم أنني تسببت في هذه العلاقة الغريبة، لأنني كنت أحبط محاولات الرجال المتزوجين في العمل لنيلهم من "سهام" ذاك النيل المجاني، فهم لن يتزوجوها أبدًا كما كانوا يصرحون لبعضهم أمامي على سبيل المزاح أنها ستأخذ دورتها بينهم وتخلص، كما كانت تقوم بإيهامي أنها تكره الرجال ولا تطيق التعامل معهم، رغم قبولها الزواج من عريسين تقدما لها بعد عودتها للعمل من خارج العمل، ولكنها تراجعت فرفضتهما، وكذلك محاولات السيدات والبنات الطامعات في شباب "أحمد" وصحته الموفورة اللافتة للنظر، ونظرة الرجال بحسد شديد لأحمد الذي "لطخهم" على أقفيتهم وأخذ منهم "المزة". أما النساء فكعادتهن، أخذن يندبن حظهن العثر الذي جعل أزواجهن يعيشون معهن كل هذا العمر ويثرثرن على "سهام" الناصحة الذكية التي "جرجرت الواد" وعلقته في حبالها وربطته رغم أن لديها ثلاثة أولاد أكبرهم جامعي وعروسة قمر في سن الزواج.

وأخذ الرجال والنساء يتكلمون عنـــي أنـــا "الخبيثـــة" التـــي وفقـــت العروسين، وساهمت في الموضوع منذ بدايته، وأنني أول من عرف سر "سهام وأحمد".

- صحيح "اتق شر كل من اقترب من الأرض" القصيرة الســـهنة دى بيطلع منها بلاوي.

وبدأ الجميع يتودد لي، كي يعرفوا الأخبار من أولها وعلى حقيقتها:

- ياترى إيه موضوع أحمد وسهام، إتجوزوا إزاي؟!

- ياخيبه مش كنتي أولى به، شاب زي الفل، تتركينه هكذا يمر من تحت إيديكي؟

وكنت شاهدة على لقاءاتهما السرية قبل الزواج تعاطفًـــا منـــي مـــع ظروف أحمد الذي يأتي كل يوم من طنطا للعمل في القاهرة ولا يرتاح أبدًا، فكانت سهام تقنعني أنه:

- يجب علينا ياريم أن نحتوي هذا "الغليان".

وبدأتْ توجه الدعوات للرجل البائس الذي لاتشعر به زوجته حتى لو جرفته الغريزة العادية للاقتراب منها، فيـــتم المـــراد بطريقـــة آليـــة معروفة، ونادرًا ماكان يحدث هذا الشيء البغيض بالنسبة لزوجتـــه كما كان يدعي أحيانًا، كما أنها غير نظيفة في نفسها ولا تهتم بتلميع جسدها، أما سهام لامعة دائمًا، منذ أن عادت إلى العمل عن طريـــق البكاء والنواح والشكوى بعد غياب خمسة عشر قضتها فـــي كنـــف الزوج الضابط المتوفي، عندما بدأت عودتها للعمـــل، كانـــت تبـــدو كالمرأة العجوز بملابس الحداد التي تظاهرت بأنها لا ترتدي غيرهـــا

منذ أن تُوفِي زوجها من ثلاث سنوات وسحبت في يدها أولادها الثلاثة ووقفت تبكي وتولول على باب رئيس العمل واستعطفت طوب الأرض بشكلها المأساوي حتى تمت الموافقة على عودتها بنفس راتبها الذي وقفت عنده تعاطفًا من رئيس العمل مع موقفها الصعب.

عادت تتسلل كالأفعى بين الموظفين، الكل خدع في هذا البياض المشبع بسواد كبير تحت العينين، تعاطفوا معها، هناك من أعطى لها "سندويتشات"، وآخر أعطى لها الشاي، وأخرى ربتت على كتفها لتواسيها ولتخبرها أنها لابد أن تخلع الأسود وتنظر نظرة متفائلة للحياة.. وبمجرد سماعها لهذا الكلام، بدأت سهام تتأنق وتستدين للظهور بأبهى صورة، وللصرف على أحمد الذي يتظاهر بالسذاجة، فدائمًا ما يفلس بعد قبض الراتب بيومين، فراتبه لا يتجاوز المائة جنيه رغم أنه محترف في الحاسب الآلي.

ومع الوقت تمكنت سهام من أحمد، فالحب تملك من قلبيهما، ونسى زوجته وأولاده بفضل الحب الكبير والكرم المفرط الذي غمرته به الأرملة الطيبة الحنون سهام.

رأيت بعيني درسًا حقيقيًّا في كيفية إيقاع رجل في هوى امرأة وحيدة، لا تملك من حطام الحياة إلا ثلاثة أطفال وحزنًا عظيمًا، حقًا كانت تعاني معاناة حقيقية، خاصة أن أولادها يتمتعون بجمال حقيقي وأدب جم، ولا ينقصهم إلا أب حنون. ولا يهم هل يحتاج أولاده لأب حنون أم لا، لم يفكر أحمد في أطفاله، إنما سيطرت عليه إغواءات سهام

بنظراتها وملابسها الحشمة جدًّا، والمكياج الرقيق الذي لا يظهرهــا كسيدة تزوجت وأنجبت وترملت.

وبطريقة جهنمية عادية تم إعلان زواج سهام وأحمدـ ليفاجأ الجميع بزواج السيدة ذات الأربعين عامًا من الشاب الأصغر منها باثني عشر عام.

§ العشر سنين السادسة

بدأتُ أشعر باختناق،

الملفات محملة بعفار الزمن تنتظر إعدامها وتنظر لي

بسخرية... التليفون باردٌ يصر على دخول الثلاجة فكيف

يتوجه إلى طرق الضحك والقهقهة ؟!

الآن لي أفكار لا داعي لذكرها على أي حال...

- ١ -

مقلوب فنجان العرافة الدجالة، تنتهي عيناها برموش مسنونة لــوخز الشيطان الكاذب هو الآخر، تعترض دقات الساعة ورنــين التليفــون وتكتكات الكمبيوتر وكل ما يصدر "تك.. تكتك" إلا هذا المخلوق الــذي يسكن أربع غرف لا يطيق العيش داخلها لا يصدر هذه التك.. ربمــا مات أو أصابه نوع من الثبات إلى أجل غير مسمى؛ أو حتى مسمى! وربما لاتزال قضيته مرفوعة في محكمة الهزل،كل المحاضر الموقعة باسمه ترفض الدخول إلى دولاب الملفــات وتــرفض يــد المحضــر الساذجة أن القضية لا تعنيه.

وعلى صفحة بيضاء من النوع المصقول كتب مخلوق الأربع غــرف كلمات غير مرئية، أو لنقل نوعًا أبيض من اللغات الميتة في زمن لا نعرفه، وكانت صفحة ناجحة تم نشرها على جدار الغرف حتى يقرأها المارة إن استطاعوا الفهم!

رأى ظل شباكه معكوسًا بالباب المغلق، اخترق الباب معتقدًا أنه يقفز الشباك إلى لا طريق، فصدمه الباب بالطبع، أصــابه دوار كرتــوني، وسقط ضاحكًا وهو يردد: تك تك تك.

غفا غفوته إثر اصطدامه، وأفاق على ضجة ساكني الفنجان المقلوب، نظر فيهم، تفحصهم، لم يفهم من ضجتهم سوى بعــض التكتكــات، فكسر الفنجان في جدار الغرف الأربعة.

أنسى مخلوقي الصغير المتربع بين جوانبي، وأنظر حولي فجأة لأجد نفسي أجلس وحيدة...

لماذا يجمعني مكان بهؤلاء؟ هم لا يقرأون الفنجان ولا يصدقون بالحظ والقدر والقسمة والنصيب، دائمًا ما يكسرون لي فنجانين القهوة التي يأتي بها الأصدقاء لقراءتها لهم، قالوا إنني تلك الدجالة أم الشعور!

لماذا لا أتمرد وأرفض وجودي بين هؤلاء الأشخاص الذين يشبهون شجرة اللبلاب في صفتها فقط؟!

ليرحمني الله من التفكير قليلاً، أسير في دهاليز المبني الكبير هذا؛ تلك المؤسسة التي نمت أظافري في أروقتها عندما دخلت لأول مرة بعدما كبرت، تعجب الناس من قصري وغروري البادي بلا داعي، رأيت لأبي وجهًا آخر هناك! ترتعد نظرات عينيه للحفاظ على أرغفة الخبر الشهرية، وحيدًا بلا أصدقاء؛ كما كنت أتصور من حكاياته...

"أين هذا العالم يا أبي؟"

- ٢ -

لم أخذ وقتًا طويلاً في الفهم.. فوجود رجل كرئيس العمل، هذا والذي يتعامل معه كل العاملين على اعتبار أنه الإله "آمون رع" وهم الشعب المطيع الحامي المتعبد، وهو يسمع كلام الكهنة الملتفين حوله برؤوسهم الصلعاء وكروشهم المنفوخة بالفراغ تنتظر وخزها بإبرة كي تنتشر في الأجواء أحشاءهم برائحتها العفنة، يضعون على رؤوسهم "أرايل" كبيرة كنوع من أنواع العظمة، ويمجدون عقله الذي يفهمهم جيدًا، ويعرف كيف انتفخت كروشهم، لكنه لا يقف وقفة حاسمة معهم، ربما لأنه ينفذ الأوامر التي تمليها عليه القدم التي تلبس الحذاء، يسير نافشًا ريشه المقطع بلا انتظام، وكأنه الرجل الوحيد الذي بقي على الأرض، ومن المفترض أن كل الفراخ والكتاكيت تسير في حماه...

إن إبراهيم يتعامل مع كل هذا بمنطق المتفرج حفاظًا على بقائنا أحياء، ظل يصم أذنه ولا ينطق بسيئة في حق أحد لأنه يخاف علينا نحن الرباعي الذي سببنا له شللاً في أحد الأيام، ونفس الرباعي الذي سبب له مرضًا خطيرًا بالقلب، لا هو مشارك ولا هو معترض... فعرفت ببساطة أن حياته لا تقوم داخل هذا المبنى أبدًا، وإنما مع الأصدقاء على المقهى؛ مثلما أفعل تمامًا؛ ومع ذلك لم يحن ظهره لأي ملك أو أمير إلا ليرفع الآخرين عليه، لم يمد يده أبدًا إلا للقلم الذي أصابه بهذا الشلل النصفي الذي قاومه حتى تحركت يده مرة

أخرى، كي لا يثير الشفقة في أعين الناظرين إليه، وطالما لم يفقد صوته العالي؛ لن يقعده شيءٌ أبدًا عن الكتابة إلا انتباهه أحيانًا أنه فقد الأب.

عدتُ للسير وسط زحام وسط البلد، أحاول جاهدة البحث عن موضوع للكتابة والهروب من الحلم غير المحقق بزواجي برجل يأخذني بعيدًا ليؤرجحني معه حتى أتعب من النشوة، لكنه حلم، كنت أعلم وأنا أحلم معه أنه دخان صاعد من مدخنة أحلامي المستحيلة، يصعد معي من طرف المدخنة متماسكًا، ثم يتبخر في الهواء بنعومة، كنت أشكل بيوتًا وأطفالاً وحيوانات جميلة، نصعد بهم لطرف المدخنة، تنفصل أيدينا رغم محاولاتنا ضد الهواء القوي، أشد على يده بقوة فتتبخر ثانية، نتكون من جديد بفعل ألاعيب الشواء في المطابخ، فأجده يخرج عشرات المرات من المدخنة، مرة وفي يده وردة، ومرة ساجدًا يصلي لي، وأخرى معصوب العينين، سيظل يرى دخانه وهو يذوب في حضن الهواء طالما هناك أماكن للشواء... فيتبخر حلمي، ولينعم هوائي.

والآن هنا بين الجدران الأربعة لغرفتي يتصارع فرسان أحلام يقظتي... أبحث بينهم عن شبيه له، أين يختبئ؟

أحكم إظلام المكان كي تتدافع الصور بوضوح لرؤيتي، سيف، ذيل حصان ناعم وطويل!

أحاول جاهدة التركيز في الأمواج المشكلة في إغماضه عيني للحظات ألمح جسدًا أمرد... لا.. ليس هو فارسي، ولا جواده جوادي الذي

سيشق بي عمق الصحراء، وعينه ليست هي العيون السحرية التي طالما طاردتُها على حوائط هذه الغرفة، ووجهه الذي هو ربما لملاك وربما لشيطان... وأعرف تمامًا أنه ليس هو من سيفتت الجرح المبني بقلبي، يده الحانية تلك التي تحملني لفضاء نظيف من الأنفاس البشرية، لكن حصانه وسيفه لا يشبهان أحصنة وسيوف أحلامي.. أعرف أنه من الأفضل لي أن أعيش وحيدة هنا في وسط الأخضر والأزرق والأصفر،وأن الواجب يحتم عليّ إرضاء تلك السيدة التي أعشقها؛ أمي التي تطالبني كل لحظة بالزواج...

(حاضر يا أمي، لن أعشق، سأتغلب على فوران جسدي بالخشوع، بالتيه في صحراء لا نهائية من الأبيض) ...

لكن أليس من حقي أحيانًا أن أتذكرني وأرثي لحال أعضائي "معذرة أعضائي.. سأدعك هكذا تتألمين، محتاجة للارتواء منذ زمن، تحملتِ معي ما كان، فلا تتخلي عني وتستسلمي للنداءات الكاذبة من أعضاء أخرى لا تخصك، هل تعتقد يا صدري المرمري أنني أستمتع بحرمانك من تنهدات الوجع المرجوة، أو أنني لا أتوق لآهة تخرج من ألم النشوة؟.. وأنتِ يا شفتاي الحزينة تتشوقين لطعمٍ آخر غير طعم الحزن.. ذراعي كم احتضنت من أشخاص نظيفة بنفوس طاهرة وأماني تفوق السحاب، أتعتقد أني أستمتع بجعلك تحتضن الفراغ وقت الاشتياق؟... أرفض أن أفتح الباب للغرباء، أو استضافة أحد الأعزاء لوقت قليل ثم يرحل...

لك يا كلي، لا تستاء مني، سيأتي يومٌ تنعم مثلما ينعم كل العاشقين من حولك، لن تستمر في رفع الشعارات طول الوقت، سأنهار حتمًا

وتنهار معي يا جسدي المتعب، وسنحطم سويًا كل الأسوار المحاطة بهالتك العمياء تلك... ستذوب معي يا كلي.. عشيق حقيقي... فتمهل معي."

كيف تريدني أن أتعشق بمن لا يعرف سر النيل وأضوائه، كيف كان سيخصبني وهو لم يكن يعرف أن طمي النيل يخصب الرجال؟ فألقيت بحاجياته لهذا الطمي علها تنبت ورود نيلية لها نفع رغم كره البشر لها.

بدأ يهرب مني، كما كان يهرب إبراهيم من فاطمة، واضحة تمامًا الإنذارات بأنه لا يصلح، كانت التحذيرات متتالية ولم أهتم، حتى أحضرت مفتاح النيل بنفسي، وما إن ارتديته حتى فك السحر وبطل العمل، فلا يطالبني أحد يومًا بأن ألجأ لمجرد حضن رجل؛ مثلما لم يكن أبي مجرد رجل!

أحيانًا تكون السلالم طويلة جدًّا، فتجذبني حبال جارحة لأعلى، لا أقاوم الصعود، فهي طويلة وربما ساعدتني الحبال... أصعد، أصعد، وأستمر في الصعود حتى أجد أن سقفي قش يعيش عليه غربان مسكينة، تلك الغربان التي رأيتها كثيرًا في أحلامي، كنت أداعبها، أضعها على كتفي في أي وقت، أما الغربان فلم تتذكر حلمي بها.. وقفت أنظر لها ولحبالها الجارحة ولنزيفها الملون بلا أي اكتراث.

حاولت أن أسمع صوتها الذي يكرهه الناس، لكنها كانت على ثقة بأنني مثل الآخرين، لا تذكر أنها أتتني في الحلم!

- ٣ -

أعود للضجيج الذي يهلكني كلما مررت برجل لا أرغبه، أستشعر في جوف الشجرة التي أحتمي بها عينًا ترقبني وتجبرني علي الانتبـــاه، أسير حاملةً في عنقي صورةً لرجل مات، كلما نظرت إليهـــا تـــذكرت قبر أول غراب عشقته ولم يهتم بإحساسى أنني مثلـــه كنـــت أكـــره الغربان.

خيال "فاطمة" وهن من معايشتها لكل هذا بعقلها منذ كانـــت تنتظـــره على باب حديقة الأندلس بالساعات بحقيبة الطعـــام "المدكنـــة" إلـــى وقفتها على الباب لتأخذ منه مصروف البيت بالساعات أيضًا.. كيـــف يتحمل خيالها كل هذا؟!

تحاول سرد الحكايات التي تجول بخاطرها... إنه يذكرهم طول الوقت بتعبه في الدنيا وأنه لن يكمل مشواره، فرغم أن الحال في ذاك الوقت كان أسوأ لكنه لم يكن يمن على أحد أبدًا بما يعطيه له، أما الآن فكل ما يفعله هو الحزن الدائم على غلطته!

أدخل براويزه القديمة، وأعيد صنع حكايات تشبه حكاياته، بل إنني الآن أعيش وسط ضجيج من الأصدقاء، ذاك المندهش دائمًا، المتقشف، المغرور، البائس اليائس.. كلٌّ له موهبته الخاصة.

يسيرون جميعهم مسيرة واحدة، يعشقون الكتب والشيشة والمقهى، جميعهم يعرف كيف يدهش، يرون أنفسهم مختلفين عن كل البشر، عجينة أخرى شكلها الله غير الآخرين؛ صغار آلهة إغريقية قديمة ينتظرون من يخلدهم بتماثيل!.. أسير معهم في نفس الطريق، كلٌّ له ملكوته الذي توهم صنعه لنفسه، لا يدركون أن ما صنعوه مكتوب في ألواح محفوظة في خزانة القدر.

الوقت يتجمد عندهم أحيانًا، ويتركهم ويرحل طول الوقت، كان من بين من قابلت فتى تتجلى في ملامحه دهشة الأطفال رغم عبقريته في التأمل والحلم والكتابة، إلا أنه لا يهتم بأي شيء إلا أن يسير محملقًا في السماء، كلما سأله أحد: "إيه أخبارك، عامل إيه؟" فيجيب إجابة باهتة بعينه ويجري منزعجًا من الجميع محتضنًا حقيبته القماشية التي يملؤها بمؤن تكفيه في رحلته غير المنتهية، متناسيًا أهله وأصدقاءه، يصر على الإدهاش والاندهاش من أي شيء حتى نفسه، كان قد ترك في جبهة إحداهن ندبة بقت دليلاً على نبله لها، لأنه ذات يوم هم بها وهمت به لولا أن رأى برهان قلبه، أحب البنت حبًّا تسبب في ارتخاء أعصابه لخوفه عليها، فدفعها بيديه وهي

تحاول أن تداعبه مكانه، دفعها بقوة لترتطم رأسها بلــوح زجــاجي مكسور فتنجرح جبهتها جرحًا مخيفًا له، يحتضنها ويلعــق دمائهــا ويقبلها في كل مكان تطوله شفتيه، وهو يطلــب الســماح ولكــن لا تسامحه أبدًا، إنما تنتقل بنعومة بين الأصدقاء وتجمعهم قدر الإمكان في أحشائها ليكونوا جنينًا مزعجًا ترفض معــه ســاكنوا الأحشــاء الاستغناء عنه، ثم تتيه في المقاهي ودهاليز المدينة الكبيرة منه، ولا تحاول أن تلتقي عينيه أبدًا وهو لا يعرف يومًا كيف يعتذر لها.
فجأة تنطلق في المدينة أسراب الجرذان وأفكر فجأة في قرارات سفر كانت ملقاة في صندوق أمانيا المستحيلة المغلق كي أستمر في الحياة دون قلق... فيظهر "هشام"، رجل ذو خمسين عامًا، ليفتح قلبي لفكرة السفر، لكن هل بالفعل عشقت الرجل وسأسافر معه؟ أم أنني أحتــاج لفرصة لأحلق في سماء أكثر رحابة؟، فمنذ بروز صدري كان يخجل أبي من احتضاني، ولم ينتبه لمرات كم أحتاج لضحكته ونكته المرحة اللاذعة التي كان يلقيها عندما كان يجلسني على حجره... أما عندما دخلت العشرينيات، دأب على سؤالي "عايزة إيه، آمري" حتى أصبحت ألوم نفسي كلما تجرأت وسألته شيئًا... واليوم أجلس مع صــديقتي الوحيدة أرثي لحال أمي الواهن من طاقته التي لا تهدأ!

دأبت على مواعدة نفسي، فلم تعد لي رغبة فــي مواعــدة آخــرين، أرتدي أحسن ما لدي وأزين وجهي وشعري، أنزل السلالم المزروعة بخفة لألحق بالموعد المزعوم، فلم يعد هناك مــن يســتطيع إخمــاد البركان المتأهب دائمًا للانفجار!

أعرف أن وحدتي ليست دائمة، وأن رفـاقي الكثيـرين كلمـا زادوا شعرت بالوحدة؛ سيعرفون في وقت ما أنني أستغلهم لصالح وحدتي، وأن وجودي الدائم على "التكعيبة "بـين دخـان التفـاح والمعسـل وقهقهات الشباب "الروش" وتعليقات محمد عامـل الشيشـة علـى مزاولتي للكتّاب وللشباب أصدقائي لن تدوم، فأنا لن أرضى الوحـدة ببساطة، من الممكن العودة للبيت مبكرًا، لكنني أصر علـى العـودة متأخرة، ولا أعرف سببًا لذلك، لأجد إبراهيم ينتظرني معاركًا "المـرة الجاية لما تتأخري ما ترجعيش البيت" فأخبره إنني كنت أحاول جاهدة البحث عن بهجتي، أنظر بنظارتي الغليظة نظرة جامـدة، لـن أقـف أمامه طويلاً كي يجرحني بقسوته المفتعلة.

أعود لتكرار فعلتي، فأذهب لمكان يعج بكراسـيه البيضـاء بعقـول متفاوتة ومتناقضة وعقلي الأبله هذا يجاري هذه العقول، ولا أعرف كيف، فأجد هناك ذلك الفتى السوري المعترض دائمًا السـاخر مـن الجميع، والذي باستطاعته أن يفضح أي سر وهو في حالـة سـكر، والصحفيين الشابين الذين تحمسا له تمامًا، وتبنـا قضـيته الزائفـة وسرده لحكايات نضال وهمية في سـوريا واعتقالـه وطـرده مـن الجزائر وتونس، ثم وقوفه أمام الخنزير الصهيوني وجهًا لوجه... لا أعرف حقيقةً كيف وصل إلى مصر واختبأ في أكثر أماكنها وضـوحًا - وسط البلد - لأن كل البلاد العربية تجري وراءه وتطارده.. ولم يكن إحساسي كقارئة فنجان كاذبًا هذه المرة، لقد اتضح في آخر الأمر أنه بالفعل يهرب من بلد لبلد بحكاية مختلفة، ولكن كمجرم ونصاب.. وقد قام بعمل مصائب وسافر من البلد بطريقة غامضة، وكلما سألوا عنه،

يكون ردهم "أهو غار في داهية"... ولكن غار بعدما فتحوا له أبواب بيوتهم، وعرفوه بنسائهم، واستعرضوا ثقافتهم ونسائهم.. غار بعدما ترك بذرة عفنة في بطن إحدى الفتيات العربيات التي صدّقته وعانت وحدها بعد ذلك من كذبه... ومازالت حتى الآن تعاني.

وبعد الثلاثين تكتشف أن الزمن حرمة أيامك، تلك الأيام التي كشفت ستر عورتك في عرض الطريق أصلاً، عرضت عورتك للمارة المناضلين ليضعوا بصماتهم على جسدك المنهك بفعل السير الطويل على مدى ثلاثين عامًا من الألم، السعادة لها موعدًا محددًا وقصيرًا والألم كذلك.

لكن بعد سن الثلاثين تشعر به أطول أطول...

مرارة التجربة تُصبح حقيقة في جوفك، ربما أفلت من مصاف الفتيات اللائي لديهن أمل إلى مصاف العوانس للأبد، وربما تبدلت الأيام من الشقاوة والمرح إلى شجن وكآبة وألم أذكرها بعدما أصبحت أمًا.

بعد الثلاثين تختلف كل الرؤى وتتناثر الشخصيات الكثيرة التي عبأت بها نفسك في كل الدنيا ولا تذكر أنك عشقت يومًا عشيق عبرته سريعًا دون كلمة يخلف جرحًا غائرًا، هناك دائمًا جرحًا في القلب قبل الثلاثين.

أرفض أن أصبح رمال من رياح تطلق بلا جدوى صرخة إنقاذ رغم انعدام الرؤية وأجلس أشرب عصير دماء الأصدقاء وأنا أتحسر على ما فات، أنا شمس الملوك في زمن امتلأ بالجواري الحزينات، أحمل في يدي ذلك الورد الليموني النادر، أضعه على طاولة لوليمة عشاء

لم تتم، ثم أذهب لارتياد قطار الليل كشاهد إثبات على عصر ولى من البراءة والحلم.. ستحلق نوارس البحور المبهجة وستطوف فوق رؤوس العباء العابسة تنقر فيها بالحب، ربما كان له أثرًا على تلك العقول المقفولة على اليأس والموت.

لن أجلس بجوار الحائط أخبر المارين عن مآسي الزمن الملعون، وكيف حولني من طائر حر طليق في الأفق إلى طائر أرضي لا يقوى على الطيران خوفًا على ما يختبئ تحت أجنحته، لن استسلم لفراغ البهجة، فقط سأجمع كل الأصدقاء ليغنوا معي.. ليغنوا معي، فليذهب بعيدًا كل من أراد البكاء، فبعد الثلاثين لا وقت للبكاء.

§ قبل نهاية العشر سنين السابعة

من الأحزان والألم والموت

تعصر الأعمار..

- ١ -

شهدت بعيني تغيرات الناس واختلاف أفكارها وقناعاتها، عرفت لماذا كانت تؤمن فاطمة بحكمة "مسألة وقت"، ولم تكن تشقى لشيء في هذا الكون إلا لغضبنا نحن الأولاد الذين تهنا في طرقنا منها، ولم نحاول الجلوس في حجرها الواسع أطول وقت ممكن، هي الوحيدة التي عرفت كيف سيكون حالي بعد الثلاثين، كانت قد نبأتني به قبل أن تجلس بيننا تلملم أيامها وهي تقول:

"لا أريد حزنًا هنا، انزعوا صورة ذلك الطفل الباكي اللعين، يكفيني احتماله لسنين.. انزعوها واضحكوا.. ضحكت فاطمة وهي تحاول إفساد جروحها بيدها لتطمئن إلى إنها لا تعاني من أي شيء سوى أنها تريد العودة إلى قلين، أريد أن أعود إلى قلين".

بدأت العشر سنوات الثلاثين أو الثالثة على وجه الدقة كــي تكونــوا معي في الأحداث بعد دخول "إبراهيم وفاطمة" لبدايــة الســبعينيات، قررت هي بعد إجراء أربع عمليات جراحية بالبطن إثر ذلــك الفتــق الذي جاءها وهي تلدني حيث تسببت في قطع عرقًا هامًا ببطنهــا إذا كنتم تذكرون ذلك ما حدث في الفصل الأول عندما كان أصدقاء البطن يودعونني، فهذا العرق أصبح علة العمر كله لديها، وكانت كل مــرة تتجه إلى حجرة العمليات وهي بين الحياة والموت نظرًا لإصــرارها طول الوقت على أنها غير مريضة، وأن الموضوع أبسط من ذلــك، وفي آخر الأمر بعدما تحققت أمنيتها أن تراني في بيتي وفي حضني ابنتي تقرر أن تذهب في أمان الله وأمنــه، بعــد أن اطمأنــت علــى إبراهيم الذي غيَّر شرايين قلبه، وكانت تدعو الله من قلبها وهو فــي حجرة العمليات أن يجعل يومها قبل يومه، وقد استجاب الله لها لسبب لا نعلمه حتى الآن، ورغم حزني الشديد عليها إلا أني لن أغفر لهــا أبدًا فقد تحققت دعوتها بأسرع من البرق، وقد كنا مازلنا في أمَّــس الحاجة إليها، داهمها كابوس مزعج قوي وكأنه قرر أن يقضي عليها فورًا، وكان هذا الكابوس مجرد سبب لذهابها قبل "إبراهيم" كما تمنت ولنظل نحن الخمسة "إبراهيم وأنا وأخواتي" نعيش بعقدة ذنب أننا لم نشبع منها أبدًا رغم أنها الوحيدة التي كانت تظللنا طول الوقت بــلا ملل وبكل الخوف علينا، كانت تخاف علينا حتى البكاء.

جمعتنا في صالة البيت الجديد الذي عاشت فيه لعامين فقط، نظـرت باتجاه صورة الطفل الباكي الذي طالما أحبت صورته وكانت تـرفض بشدة أن تحركه من مكانه في صدارة الصالة، وقالت انزعـوا هـذا الولد الذي يبكي من هنا وتعالوا جميعًا وأنتم تضحكون، هيـا التفّـوا حولي، وتنظر إلى السماء وكأنها تحدث أحدًا تراه "صورة بقـى يـا رب.. لا إله إلا الله، زغردي يا بنت"، فأزغرد وهي تبتسم رغمًا عن ذلك الجرح الكبير الذي قسم شفتيها السفليتين حتى وصل لما تحـت الصدر، ذلك الجرح الذي لم يفد في استئصال سرطان الحـزن الـذي عمَّر قلبها منذ خرجت من قلين، لقد كان مستوطنًا حتى فـاض فـي آخر الأمر من تكرار الأحزان، رأيت فاطمة وهي تحفر تـراب أمهـا وأبيها وتزيحه عنهما لتنام بينهم، اختارت سرير مي ونامت عليه..

لا تبتئسوا هكذا، ذهبت فاطمة وقد حققت بعض الأماني التي تمناهـا أن ترى لي طفلاً، لم آخذ الوقت الكافي للحزن عليها؛ بمجرد ذهابهـا رقد الرجل الذي تزوجته كما سبق وعرفتم أيضًا وتجمَّعت لديه كـل أهوال الحياة المُرة التي عاشها أيضًا وفتكت بقلبه حتى أصابه التلف ومكث عامًا ينتظر معجزة الشفاء حتى شفاه الله للأبد، عندما أتمـت ابنته عامها الأول وهي لا تعرف أن هناك رجلاً مهمًا في حياتها، ولم تعرف حتى كتابة هذه السطور إلا أنه "يعيش في السماء مع تيته".

- ٣ -

هكذا أخذتني عشر سنوات لتسلمني لعشر سنوات أخرى حيث كنت أرى العالم من خلف حائط زجاجة رقيق أخشى عليه من يدي الضعيفة تأثرًا من خوف فاطمة الشديد على يدي، وهكذا أصبحت كالفراشات النادرة في حدائق أسطورية لم يلدها ماركيز، كزغرودة لم تطلقها روحي التائهة في الكون يوم زفاف وهمي، كنت جنينًا موصولاً بحبله السري بفاطمة حتى وصلت لعامي الثلاثين، بدمعة ساخنة على خدود الحياة المؤلمة لكل من أعرف، أصبحت شقية كأولاد الشوارع الملاعين، أزهو بتدخيني الشيشة على رصيف العمر المسروق، أفخر بقرائتي للنجوم بلا خوف من صانعها، كان لدي الوقت كي أطير وأطير في السماء دون أن ينفك ذلك الغراء انفك مني قبل أعوام قليلة عشتها مسكونة بأيامي المنسية في أبراج الحب، تلك التي تنقلت فيها أيامي حتى كدت أنسى أني بشر، بل مخلوق طائر حزين!

الآن، أصبحت أكثر هشاشة، ألمح في عيون الصغار شقاءً قادمًا، أرى في عين الأصدقاء موتًا محققًا لا يسعني إخبارهم به، حتى لا أصير نذير شؤم أو حتى دجالة موهومة، أعانق الآن السماء والورود والحب خوفًا من فقدانهم بعد لحظة.

أحاول العزف على كمنجة الحزن موسيقى تنبعث منها العصافير والورود فتتبدل لألحان جنائزية شهيرة أكثر بهجة، أفعل المستحيل

وأنطق الكمنجة زغرودة حقيقية يسري صـــداها للســـماء الملونـــة بأرواحنا لتعود لنا بضحكة واحدة تبقينا على قيد الحياة قليلاً.
سأهرب من حقائبي القديمة المحملة بعصائر الأعمار الحزينة وأختبئ داخل حقيبة بيضاء فارغة انظر من ثقب صغير فيها علـــى رغبـــاتي المتحركة في الحياة بلا خجل ثم أبتسم وأنام.





سهى زكي

§ **كاتبة وروائية مصرية من مواليد القاهرة في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤م**

§ **تعمل بمجلة شاشتي، إحدى إصدارات جريدة الجمهورية**

§ **نشرت كتاباتها في العديد من الإصدارت والدوريات الأدبية، منها :**

أخبار الأدب ، المساء الأدبي ، المحيط الثقافي ، الجمهورية الأسبوعي ، الثقافة الجديدة

§ **البريد الإلكتروني: soha.zaky@gmail.com**

§ **الموقع الإلكتروني: www.soha-zaki.blogspot.com**

www.uvgotamail.blogspot.com

§ الإصدارات :

- بوح الأرصفة : مجموعة قصصية بالاشتراك مع الراحل محمد حسين بكر والقاص محمد رفيع.
- كان عندي طير : مجموعة قصصية. صادرة عن دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٨
- جروح الأصابع الطويلة : رواية. صادرة عن الدار للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٩
- رؤى الساحرة الشريرة : عن مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٠٩
- فاطمة : رواية. عن مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٠

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

شمس
للنشر والإعلام

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net